مجلة كلية الآداب (دورية أكاديمية علمية محكمة)

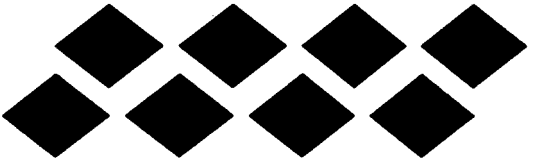

دور الملكة تركان خاتون الخوارزمية في الحياة السياسية

د . إمـــام الشافعي محمـــد حمودي
مدرس التاريخ والحضارة الإسلامية
بكلية اللغة العربية بأسيوط – جامعة الأزهـــر

أبحاث

دور الملكة تركان خاتون الخوارزمية في الحياة السياسية

د/ إمام الشافعي محمد حمودي

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين سيدنا محمد الهادي الأمين ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد ،،،

فقد تأسست الدولة الخوارزمية في المشرق الإسلامي على أنقاض الدولة السلجوقية ، وأخذت في الاتساع حتى امتدت حدودها في عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه إلى العراق غرباً وإلى حدود الهند شرقاً ، ومن سهل بحر قزوين وبحر آرال شمالاً حتى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً ، وأصبح سلطان علاء الدين خوارزم شاه لا يعلوه سلطان آخر فى العالم الإسلامي حينئذ ، لكن لم تشأ الحوادث أن تمهل الدولة الخوارزمية طويلاً ، فسرعان ما ظهر الخطر المغولي للعيان ، وقضى على أقاليم الدولة الخوارزمية واحداً تلو الآخر ، ولم يتمكن الخوارزميون من جنى ثمار ما غرسوا .

لم يكن انهيار الدولة الخوارزمية يرجع إلى قوة المغول آنذاك ، ولكن إلى عوامل ضعف أخرى ، كان المتسبب فيها الملكة تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، التي كانت مسيطرة على شئون الحكم في الدولة الخوارزمية ، يساعدها في ذلك الحزب العسكري الذي كان يشكل غالبيته العظمى ، قبيلتها من أتراك الكانكالي ، هذا فضلاً عن حزب رجال الدين ، وسيطرتها أيضاً على الجهاز الإداري في الدولة .

وإذا كانت الملكة تركان خاتون قد قامت بدور كبير في مساعدة ابنها في الجلوس على عرش أبيه السلطان تكش خوارزم شاه ، كما ساعدت ابنها في صراعه مع دولة الخطا والدولة الغورية ، كما قامت بالعدد من الإصلاحات داخل الدولة الخوارزمية ، لكنها أخذت تناصب ابنها - صاحب السلطة العليا في البلاد - العداء الصريح ، وتدخلت

في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة ، فقد تدخلت في قيادة الجيوش ، وتولية أمراء الأقاليم وتعيين الوزراء فضلاً عن ولاية عهد الدولة الخوارزمية ، وقد صاحبها الخطأ وجانبها الصواب في أغلب الأمور السياسية التي تدخلت فيها .

وقد دفعني هذا الأمر إلى الكتابة عن الملكة تركان خاتون الخوارزمية ، ودورها في الحياة السياسية ، وذلك لبيان عظمة الإسلام عندما حذر من تولى المرأة للحكم أو التدخل في شئونه ، كي لا يؤدي ذلك إلى عواقب وخيمة على الدول ، قد تؤدي في النهاية إلى زوالها من الوجود ، لذلك أفردت لها هذا البحث ، الذي تحدثت فيه عن نشأتها ، ووصولها إلى سدة الحكم في الدولة الخوارزمية ، ثم بيان دورها في القضايا السياسية التي واجهت الدولة ، كالصراع بين الخوارزميين والخطا والغوريين والخلافة العباسية ، وقضية ولاية العهد في البيت الخوارزمي ، وموقفها من الغزو المغولي لأقاليم الدولة المختلفة ، ثم وقوعها في أسر المغول ، ونهايتها في عاصمتهم قراقورم .

وفي النهاية أرجو أن تكون في سيرة هذه الملكة عبرة لمن يعتبر ... والله من وراء القصد والسبيل .

دكتور

إمام الشافعي محمد حمودي

تمهيد

الحالة السياسية في الدولة الخوارزمية

كثر الأتراك (*) في الدولة الإسلامية ، وزاد عددهم واعتماد الخلفاء عليهم .. وقد زاد تحكم الأتراك في الدولة العباسية منذ عهد الخليفة المعتصم بالله (٢١٨ / ٢٢٧هـ) وفى عهد بني بويه والسلاجقة ، وصلت العناصر التركية السلجوقية إلى قمة مجدها في عهد ملكشاه ، ثم بدأت هذه الدولة تنهار تدريجياً ، وبدأت تظهر في أنحاء الشرق الإسلامي دول وإمارات مستقلة على أنقاض الدولة السلجوقية المضمحلة،ومن هذه الدول،الدولة الخوارزمية التركية الأصل التي بدأت في الظهور حينما بدأت شمس السلاجقة في الغروب.(١)

فالدولة الخوارزمية من جملة فروع الدولة السلجوقية لأن أصل البيت الخوارزمي من مماليك أحد أمراء الدولة السلجوقية ... وأول من نبغ منهم خوارزم شاه محمد بن أنوشتكين (٢) . فقد كان عبداً تركياً من غرجستان - منطقة جبلية تقع شرقي بادغيس - يدعى نوشتكين غرجه ، وتمكن شيئا فشيئاً ، بما تحلى من عقل وكياسة ، أن يرقى في سلم المراتب حتى احتل أعلاها في الدولة السلجوقية ... وكسب لقب [طشت دار] (**) وكانت خوارزم آنئذ تابعة لوظيفة [طشت خانه] .. فدعى شحنة خوارزم ... وحكم خوارزم مدة ثلاثين سنة (٣) . وبعد وفاة نوشتكين ، أصبح ابنه الأكبر قطب الدين

(*) يعني لفظة ترك في الصينية توكيو Tu-Kue وفي اليونانية Toup Koi وظهرت لأول مرة اسما لشعب بدوي ، في القرن السادس الميلادي حين أسس الترك - ويطلق عليهم أيضا الغز - إمبراطورية قوية امتدت من منغوليا وشمال الصين حتى البحر الأسود . د / السيد الباز العريني : المغول - ط - دار النهضة العربية - بيروت سنة ١٩٨١م ، ص٢٨ .

(١) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ط - دار الفكر العربي - لم تذكر سنة الطبع . ص٢٤ - ٢٥.

(٢) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب.تحقيق د/سعيد عاشور- ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .جـ٢٧ ص١٩٨.

(**) الطشت دار : وظيفة من الوظائف الصغرى وصاحبها تابع للطشت خانة السلطانية وسميت بذلك ؛ لأن فيها الطشت الذي تغسل فيه الأيدي والقماش . البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سنة ١٩٨٤م . ص٢٣٢ .

(٣) الجويني : تاريخ فاتح العالم . ترجمة د / محمد التونجي . ط - دار الملاح - سوريا - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م . جـ١ ص٢٥٥ - ٢٥٧ .

محمد حاكما لتلك الولاية وأطلقوا عليه لقب خوارزم شاه .[1] وحين آنس في نفسه القوة وآنس في سادته الضعف ، خرج عليهم مع الخارجين شأنه شأن ولاه ذلك العهد .[2]

وعندما توفى نوشتكين في سنة ٥٢٢هـ - ١١٢٨م خلفه ابنه أتسز عرف بفضله وعلمه ، وفاق أقرانه بشهامته وصرامته ، وحقق للسطان سنجر السلجوقي فتوحات كثيرة ، فأثبت أهليته لخدمة السلطان الدائمة ... وعلا مقامة واشتدت شوكته يوما فيوما ، وتألب عليه حساده من كثرة ما رأوه يلقى العناية السلطانية ... فزادت شقة الخلاف بين الطرفين ووصل أتسز إلى خوارزم ورفع راية العصيان .[3]

استمر النزاع بين القوتين السلجوقية والخوارزمية ، طيلة عهد أتسز خوارزم شاه حتى توفى سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م وشاءت الظروف أن يلحق به سنجر في السنة التالية ، وبوفاة سنجر انتهت القوة السلجوقية تماما من بلاد فارس وخراسان ولم يجد الخوارزميون بعده منافسا يقف أمامهم ويعوق سبيل توسعهم فخلا لهم الجو تماماً .[4]

لم تتعرض خوارزم لهذه المحن - التي تعرض لها إقليم ما وراء النهر(*) - نظراً لوقوعها في واحة خصبة تحتمي وراء شريط من الصحراء ، واستطاعت أن تتحرر نهائياً من التبعية للسطان سنجر بعد أن تداعت سلطته . وحافظ الخوارزميون على إمارتهم متماسكة غير منقسمة ... وهذا الوضع فرض على الخوارزمشاهية أن يزيدوا من قوتهم العسكرية ... فقد أدرك تكش - الذي تولى العرش بعد أبيه - أنه لابد أن يرث السلاجقة فطلب من الخليفة العباسي أن يعترف به سلطاناً في بغداد ، وعلى الرغم من أنه لم يكن في وسع الخليفة أن يعترض على هذا الطالب ، فإن من نتائجه أن أضحى تكش عدواً للخليفة والجماعات الإسلامية السنية .[5]

---

(1) د / حربي سليمان : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير - ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م. ص٣٠٨ .

(2) د / ثروت عكاشة : إعصار من الشرق [جنكيزخان] ط - دار الشروق - القاهرة - الطبعة الخامسة سنة ١٩٩٢م . ص١٤٦.

(3) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٢٥٦ - ٢٥٨ بتصرف بسيط .

(4) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص ٢٨ .

(*) ما وراء النهر : يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان. ياقوت الحموي : معجم البلدان . ط - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٩م ، جـ٥ ص ٤٥ .

(5) د / السيد العريني : المغول . ص ٨٤ - ٨٥ .

فى عهد حياة تكش خوارزم شاه ، استطاعت الدولة الخوارزمية بفضل جهوده أن تتوسع غرباً ، كما استطاع هو أن يجعل دولته مسموعة الكلمة بين أمراء إقليم فارس وحكامه ... لكن لم تمهل الأيام علاء الدين تكش خوارزم شاه طويلاً حتى يحقق ما كان يدور بخلده من مشروعات ، فقد مات سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩م إثر مرض ألم به وهو في طريقه لتوسيع رقعة بلاده في خراسان ، تاركاً لابنه قطب الدين محمد - الذي اتخذ لنفسه لقب أبيه وتسمى علاء الدين - دولة عريضة تضم إقليم خوارزم وبعض البلاد الخراسانية والري(*) وغيرها من بلاد العراق العجمي ، وقد أورث تكش ابنه فوق ذلك عبئاً كبيراً ، إذ كان عليه أن يواجه أعداءه المحيطين بدولته.(١)

كان على الدولة الخوارزمية أن تتطلع إلى الدولة الغورية فتصطدم بها ، كما كان لابد لها من أن تصطدم مع [دولة الخطا](**) في الشرق ومع الخلافة العباسية في الغرب ... وبدأت الدولة الخوارزمية بتحطيم صرح القوة السلجوقية في المشرق أيام السلطان سنجر الذي وجد نفسه أمام قوتين ، اجتمعتا على محاربته ، هما الدولة الخوارزمية ودولة الخطا .(٢) خلف محمد خوارزم شاه أباه تكش وأكثر ما حققته سياسة الخوارزمشاهية من نجاح يتمثل فيما قاموا به من فتوح فاحتلوا إقليم ما وراء النهر وأقاليم دولة الغوريين واعترف بهم القبجاق ، وأسهموا في تدمير الخطا ... والواقع أن إقليم ما وراء النهر ظل بيد الخطا ، إلى أن انتزعه منهم محمد خوارزم شاه سنة ١٢١١م/ ٦٠٨هـ بعد أن تداعت مملكة الخطا نتيجة ضغط المسلمين من جهة الغرب ، وضغط المغول لها من جهة الشرق .(٣)

كان تأسيس هذه الدولة ومتاخمتها لأملاك المسلمين ، من الأمور التي شغلت أذهان القوى الإسلامية في ذلك الوقت والمتمثلة فى السلاجقة والخوارزميين ، لأن

(*) الري : مدينة مشهورة من أمهات البلاد ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً ، وهي مدينة ليس بعد بغداد في المشرق أعمر منها. الحموي : معجم البلدان جـ ٣ ص ١١٦.

(١) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٢٩ - ٣٣ .

(**) أضاف المغول لفظ [قرة] Kara إلى اسم الخطا فأصبحوا يسمون Kara Khitai ولفظ قرة لفظ مغولي أو تركي معناه أسود أما سبب إطلاق المغول لون السواد عليهم فغير معروف ، ولعل ذلك يرجع إلى عداوتهم وكراهيتهم لهم . المرجع السابق : ص٦٣ حاشية رقم (٤).

(٢) د/ حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص ٢٢ - ٢٦ .

(٣) د / السيد العريني : المغول . ص٨٥ .

وجود هؤلاء الخطا قد أثار كثيراً من المتاعب للمسلمين في الدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية الناشئة ... فاتجهت أنظار المسئولين في هذه الدولة الحديثة العهد ، إلى محاولة توسيع سلطانهم على حساب القوى الأخرى .[1]

اتسعت الدولة الخوارزمية شيئا فشيئا حتى بلغت أقصى اتساعها في عهد علاء الدين خوارزم شاه ، إذ امتدت من حدود العراق العربي غرباً إلى حدود الهند شرقاً ، ومن سهل بحر قزوين وبحر آرال شمالاً إلى الخليج الفارسي والمحيط الهندي جنوباً ... وكانت بموقعها الجغرافي وحدودها السياسية - السالفة الذكر - تسيطر على مفاتيح الطرق البرية للتجارة الآسيوية ... وأصبح سلطان علاء الدين لا يعلوه سلطان آخر في العالم الإسلامي .[2] يقول النويري عنه [3] " وهو الذي عظم من ملوك هذه الدولة شأنه وكثرت جيوشه وأعوانه وشاع بين الملوك ذكره ، وعم الممالك نهيه وأمره " ، ويقول ابن تغرى بردى أيضا[4] : "كان أعظم ملوك الدنيا واتسعت ممالكه شرقاً وغرباً ، وهابته الملوك ، حتى لم يبق إلا من دخل تحت طاعته وصار من عسكره " ، لم تشأ الحوادث أن تمهل الدولة الخوارزمية طويلاً ، فسرعان ما ظهر الخطر المغولي للعيان ، فلم يستطع علاء الدين أن ينصرف إلى شئون دولته الداخلية ... لأن الفترة التي تلت عودته من البلاد الغربية كانت من القصر بحيث لم تسنح له الفرصة لإصلاح أحوال دولته الداخلية وتنظيمها ، ومواجهة قوة المغول الحربية .... فاجتاح المغول الدولة الخوارزمية واستولوا على أقاليمها ، وقلاعها واحدة بعد أخرى ، حتى أجهزوا على ذلك الملك العريض الذي كونه الخوارزميون ولم يمهلهم الوقت ليجنوا ثمار ما غرسوا .[5]

بعد أن اطمأن جنكيزخان إلى استقرار الأمور في داخل دولته ، سار إلى البلاد الشمالية من بلاد الصين وتمكن من إخضاعها ، كما اتجه إلى الانتقام من أعدائه الذين فروا من وجهه تجاه الغرب ، ومن ثم اصطدم بالقوى الإسلامية ، ولاسيما الدولة الخوارزمية التي كانت قد وصلت إلى أقصى اتساع لها في عهد علاء الدين محمد خوارزمشاه ، وقد تمكن جنكيزخان من تخريب أقاليم هذه الدولة والتنكيل بسلطانها

---

(1) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٦٣ .

(2) المرجع السابق : ص ٣٦ - ٤٨ .

(3) نهاية الأرب : جـ٢٧ ص٢٠٦ .

(4) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : ط - وزارة الثقافة والإرشاد - مصر - لم تذكر سنة الطبع . جـ٦ ص٢٢٥ .

(5) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول ص٣٨ بتصرف بسيط .

وجيوشها وسكانها في مدة لا تزيد على أربعة سنوات ، إذ بلغ حدودها سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م وشرع في العودة إلى منغوليا سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م ... ولم يكن من المؤكد أن ينتصر المغول على المسلمين ، وأن يحرزوا ما أحرزوه من نصر لولا ما كان يعانيه الشرق الإسلامي في ذلك الوقت من انحلال سياسي واضطراب اقتصادي وفوضى اجتماعية .[١]

يقول ابن الأثير مؤكداً ذلك[٢] : " إن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع . وسبب عدمه أن خوارزم شاه محمداً كان قد استولى على البلاد ، وقتل ملوكها ، وأفناهم ، وبقى هو وحده سلطان البلاد جميعها ، فلما انهزم لم يبق في البلاد من يمنعهم ، ولا من يحميها ". إذ لم يبق خوارزم شاه ووالدته تركان خاتون - على أي ملك قوي مستقل في أي من الممالك التي فتحها السلطان ... وباكتساح المغول للممالك الإسلامية وفرار السلطان محمد ووالدته - كما يأتي ذكره بعد ذلك - أمامهم ، لم يعد في ما وراء النهر وإيران من له القدرة على الوقوف في وجه المغول والدفاع عن الإسلام .[٣]

لما قتل السلطان جلال الدين منكبرتي - آخر سلاطين الدولة الخوارزمية - دخل جماعة على الملك الأشرف موسى[*] فهنئوه بموته ، فقال : تهنئوني به وتفرحون ، سوف ترون غبه والله لتكونن هذه الكسرة سبباً لدخول التتار إلى بلاد الإسلام ، ما كان الخوارزمي إلا مثل السد الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج ، فكان كما قال الأشرف .[٤]

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي . تحقيق د / حافظ حمدي . ط - دار الفكر العربي - القاهرة سنة ١٩٥٣م. ص٤، ١٢ مقدمة التحقيق .

[٢] الكامل في التاريخ . ط - دار صادر - بيروت - لبنان - الطبعة السادسة سنة ١٩٩٥م . جـ١٢ ص٣٦١ .

[٣] عباس إقبال : تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية . ترجمة د / عبد الوهاب علوب - ط - المجمع الثقافي - أبو ظبي سنة ٢٠٠٠م . ص١٢٩ .

[*] هو الملك الأشرف موسى شاه ابن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيوب ، توفى بدمشق سنة ٦٣٥هـ /١٢٣٧م ودفن بقلعتها . ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة. جـ٦ ص٣٠٠ .

[٤] المصدر السابق : جـ٦ ص٢٧٧ .

نشأة الملكة تركان خاتون(*)

لا نكاد نعثر في المصادر التاريخية المعاصرة للملكة تركان خاتون أو المتأخرة عنها ، عن أي معلومات عن نشأتها الأولى الخاصة بتاريخ ميلادها والتحديد الدقيق لاسم المدينة او القرية التي ولدت بها ، والظروف التي أحاطت بها في طفولتها وصباها ، ويمكن أن نعزو ذلك إلى أن المؤرخين لم يهتموا بالحديث عنها ، إلا بعد أن تزوجت بالسلطان تكش خوارزم شاه وبدأ نجمها في الصعود في البلاط الخوارزمي .

أما ما ذكر عن أصلها فقد ذكرت إحدى المراجع الحديثة أن تركان خاتون عندما تزوجها السلطان علاء الدين تكش خوارزم شاه كانت ابنة لأحد زعماء هذه القبائل التركية[1] ، في حين ذكرت بعض المراجع الأخرى أنها كانت ابنة أحد أمراء الترك[2] ، لكن بالرجوع إلى المصادر المتأخرة نجد أنها تخالف ذلك، فذكر النويري بأن تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد ، هي بنت خان جنكش ملك من ملوك الترك [3] ، وأكد ذلك بعض المصادر المعاصرة كالنسوى الذي يقول عن ذلك [4] : " كانت تركان خاتون من قبيلة بياووت ، وهي فرع من فروع يمك .. وكانت بنت خان جنكش ، ملك من ملوك الترك وتزوج بها تكش بن إيل أرسلان زواج الملوك بنات الملوك " . ويفهم من ذلك أنها لم تكن من محظيات السلطان تكش ، بل كانت من بنات الملوك ، ومن المحتمل أن يكون ملك أبيها قد آل إليها وإلى زوجها السلطان تكش من بعد وفاته ، ويؤكد ذلك النفوذ القوي الذي تمتعت به في حياة زوجها السلطان تكش وفي عهد ابنها السلطان علاء الدين من بعده .

يقول الجويني عن أصلها [5] : " أنها من القبائل التركية التي تدعي قنقلي". فهي من قبيلة بياووت ، وهي فرع من قبائل قنقلي أوكانكالي Cancalis ويرجع أصلها

(*) كلمة [تركان] التي كثيرا ما ترد كاسم للملكات التركيات ليست اسم علم ، بل لقب يعني الملكة والسيدة . بارتولد :تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي .نقله عن الروسية / صلاح الدين عثمان . ط ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م ص ٤٨٨ .

(1) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٢٣٣ .

(2) عباس إقبال : تاريخ المغول. ص٨٤ .

(3) نهاية الأرب : جـ٢٧ ص٢٤٧ .

(4) سيرة السلطان جلال الدين : ص٩٩ .

(5) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص٩٩ .

إلى السهول الواقعة في شمال خوارزم وفي الشمال الشرقي من بحر قزوين.[١]

ولقبت عند ارتفاع شأنها بخداوند جهان ، يعني صاحبة العالم [٢] . ولقبت أيضا بغايرخان [٣] . فكانت ذات مهابة ورأي ، وإذا رفعت الظلامات إليها تحكم فيها بالعدل والإنصاف ، وكانت تنتصف للمظلوم من الظالم ، غير أنها كانت جسورة على القتل [٤] ، وكان لها خيرات ومسبلات في البلاد[٥] ، ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل كانت تركان خاتون قدوة لكل نساء البيت الخوارزمي ، من ذلك أن السلطان جلال الدين منكبرتي لما كان ببلاد الهند فاراً من التتار ، تحكمت والدته فيما كان تحت ولايته ، وتلقبت بخداوند جهان - أي سيدة العالم - أسوة بوالدة السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، تركان خاتون .[٦]

كانت دائرة نفوذ الملكة هي ولاية خوارزم ، وكان معظم الجيش وقادته ورجال الدولة في هذه المنطقة إما من أتراك كانكالي أو من خواص الملكة وغلمانها [٧] . فضلا عن ذلك على نفوذها على السلطان - علاء الدين خوارزم شاه - وعلى أملاكه وأعيانه .[٨]

يقول النسوى عن مجمل مكانتها في الدولة الخوارزمية[٩]: " إن أوردنا ما شاهدناه من عظم شأنها لطال الكلام " .

سيطرة الملكة تركان خاتون على أمور الدولة

كانت سياسة الدولة الخوارزمية نحو العناصر التركية خير مشجع لهذه العناصر على النزوح إلى أراضيها والاستيطان فيها ، فنزح إلى أراضي هذه الدولة عدد كبير من رجال هذه القبائل التركية المرابطة على حدودها في الشمال ، ومنها قبائل كانكالي Cancalis ، وخاصة بعد أن تزوج علاء الدين تكش خوارزم شاه من تركان

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٩ حاشية رقم (١) .
[٢] المصدر السابق : ص ٩٩ .
[٣] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٩٨ .
[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٩ .
[٥] النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ ص٢٤٧ .
[٦] النسوى : سيرة السلطان . ص ١٨١ بتصريف بسيط .
[٧] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .
[٨] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص٩٩ .
[٩] سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٩ .

خاتون التي تنتسب إلى أحد فروع هذه القبائل ، فكان من أثر هذه الرابطة أن نزح عدد كبير من رجالها إلى قلب الدولة ، وتكونت منهم جالية قوية أخذت تتحكم بالتدريج في وظائف الدولة المختلفة ، كما أخذت تسيطر على أقاليمها المتعددة .[١]

لم تستند الدولة الخوارزمية ، مثلما استند السلاجقة إلى عشيرة تركية واحدة ، فأسرة خوارزم شاه تنتمي إلى بيت كان يعمل أفراده في خدمة السلاجقة ، وليس وراءها عشيرة تساندها ... ونجم عن ذلك أن الجيش لم يتألف إلا من عساكر مأجورة مستمدة من قبائل الغز أو القانقلي ... الذين لم يكن لهم ولاء إلا لمن يؤجرهم ، ولم يكن لدى معظمهم إلا فكرة واحدة ، هي أن يرتكبوا الخيانة ... ولذا حرص محمد خوارزم شاه على ألا يثير سخطهم وغضبهم .[٢]

إن تكش بتقريبه لهم وإدخالهم في خدمة الدولة وارتباطه معهم برباط المصاهرة ، خلق طبقة عسكرية قوية ساهمت في انتصاراته العسكرية ، ولكنها أثبتت منذ أيام حكمه أنه ليس بوسعه الاعتماد عليها في نزاعه ضد أعدائه من أهل السهوب التركي .[٣] لما انتقل الملك إلى السلطان محمد وراثة عن أبيه تكش ، انضمت إليه قبائل (يمك) ممن يجاورها من الترك فتكثر بهم[*] ، واستظهر بمكانهم ، وتحكمت لهذا السبب تركان خاتون في الملك فلم يملك السلطان إقليماً إلا وأفرد لخاصتها منه ناحية جلية [٤] من ذلك أن خوارزم شاه عندما سيطر على مدينة هراة سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م أصلح حالها وسلمها إلى خاله أمير ملك ، وهو من أعيان أمرائه، فلم تزل بيده حتى هلك خوارزم شاه [٥] ، ولما فشلت حملة خوارزم شاه في الاستيلاء على بغداد سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م عاد إلى خوارزم ، فولى همذان أميراً من أقاربه من جهة والدته ، يقال له طائيسي .[٦]

أخذ نفوذ الأتراك يتوغل في الدولة الخوارزمية لدرجة عجز معها سلاطين هذه

---

[١] سيرة السلطان جلال الدين : ص ٧٦ حاشية رقم (٣) .

[٢] د / السيد العريني : المغول . ص١١٤- ١١٥ .

[٣] بارتولد : تركستان . ص٥٠٢ .

[*] استملنت جريدة ديوان الجيش - على عهد خوارزم شاه - على ما يقارب أربعمائة ألف فارس ، النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٤٩ .

[٤] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص ٩٩ .

[٥] ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٢٦٥ .

[٦] المصدر السابق : جـ١٢ ص٣١٨ .

الدولة عن كبح جماحهم ، فاضطروا إلى إرضائهم بشتى الوسائل والأساليب ، تارة بمنحهم الخلع والهبات والأعطيات،وتارة أخرى بإسناد حكم أقاليم الدولة إليهم،ولما يأس الخوارزميون من هذا وذاك،لم يجدوا أمامهم إلا ألقاب الشرف فأسرفوا في إعطائهم إياها [1] إذ لم يكن ولاءهم للدولة [*] ولكن احترامهم لمكانة تركان خاتون هو الذي يدفعهم للطاعة بصورة عامة [2] . فقد كان الترك يعتزون بانتسابها إليهم وقد تقووا في عهدها ودعوا بـ(الأعاجم) وحظوا بكثير من عطفها عليهم ، ورأفتها تجاههم وكانوا حيثما مروا بثوا الخراب والدمار ، وتحصن السكان في قلاعهم وخلف أسوارهم خوفاً منهم . [3]

إن أمراء خوارزم شاه وقواده العسكريين كان بعضهم منحازاً لسلطة السلطان ، ويطيع البعض الآخر أمر تركان خاتون فكانوا يكيدون لبعضهم بعضاً بصورة مستمرة [4] . إذ لم تكن بين هذه الجيوش الخوارزمية رابطة ، ولم تجتمع على أمل أو هدف ... من أجل ذلك فقد سلاطين [خوارزم] ثقتهم بجيوشهم ولم يطمئنوا إليها ، فأحاطوا أنفسهم بحرس خاص ، وكان هؤلاء القوم حديثي عهد بالإسلام ، فلم يؤلف الدين بين قلوبهم وأهوائهم ، وكان كل فرد منهم يغلبه تعصبه لجنسه على تعصبه لدينه . [5]

كانت تركان خاتون والده خوارزم شاه على الرغم من حسن تدبيرها ، من الأسباب الرئيسية لفساد أمر خوارزم شاه ، بسبب قرابتها لأتراك كانكالى وإعطائهم الفرصة للتدخل في شئون البلاد واستبدادهم بالرأي . [6]

انتهى الأمر بهؤلاء الحكام إلى أن نافسوا سلاطين الخوارزميين أنفسهم ، بل نراهم في كثير من الأحيان يعمدون إلى إرهاب الأهالي المغلوب على أمرهم ، حتى اضطرب الأمن في البلاد وعجزت الدولة كما عجز الأهالي عن رد عادية المعتدين

---

[1] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٩٠ .

[*] كانوا يدركون أنهم إذا انتصروا في ميدان القتال ، فلن يعود عليهم هذا النصر بخير كثير . المرجع السابق : ص ٢٣٦ .

[2] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص١٢٦ .

[3] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص٩٩ .

[4] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص١٢٨ .

[5] د / ثروت عكاشة : إعصار من الشرق . ص١٥٦ .

[6] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .

منهم[١] . على الرغم من أنهم جاؤوا إلى تلك الأمصار في صورة المحررين لأهلها من ظلم الآخرين ، وبهذا جعلوا من أسم سلطانهم هدفاً لبغض الأهالي .[٢]

لم تكتف تركان خاتون ببسط سيطرتها على الجيش ، وتكوين طبقة عسكرية أرستقراطية موالية لها ، بل امتد نفوذها وسيطرتها إلى الجهاز الإداري في الدولة الخوارزمية ، ولا عجب في ذلك فكانت الدولة الخوارزمية بأقاليمها المختلفة تقع تحت سلطان سيد يفتقر إلى التجربة [٣] . فقد كان السلطان علاء الدين خوارزم شاه رجل حرب ولم يكن رجل سياسة بالدرجة الأولى .

لم تدخل أية منطقة تحت سيطرة الخوارزميين في عهد زوجها تكش وابنها السلطان محمد ، إلا وقامت تركان خاتون بتعيين أحد خواصها حاكماً عليها [٤] . إذ كان جيش المرتزقة يؤلف الدعامة الوحيدة للعرش ، فحرص السلطان على أن يخصهم بكل المناصب العالية في الدولة ، فيتخذ منهم الوزراء والقضاة والمستوفين .[٥]

أخذت الملكة تركان خاتون تناصب أبنها - صاحب السلطة العليا - العداء الصريح ، وتتدخل في كل صغيرة وكبيرة في شئون الدولة [٦] . فكان لتركان خاتون بلاط خاص بها ، وأركان لدولتها توزع منه الإقطاعات ، كما كان لها مجالس أنس [*] خاصة تقام سراً ، ويؤمها كثير من أبناء أسرتها القديمة وليسوا من الأسرة السلطانية [٧] . فقد أقحمت في هذه المجالس كثيراً من رجالها الأتراك ، فأفسد هؤلاء الأتراك الحكم على الخوارزميين ، فاضطربت أحوالهم .[٨] كان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الفضلاء وسادات الأكابر .... وكان أعظم تواقيعها : عصمة الدنيا والدين ألغ تركان ملكة نساء العالمين " . وعلامتها " اعتصمت بالله وحده " وكانت تكتبها بقلم غليظ ، وتجود

---

[١] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧٦ حاشية رقم (٣) .
[٢] بارتولد : تركستان . ص ٥٠٢ .
[٣] د / السيد العريني : المغول . ص١١٤ .
[٤] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .
[٥] د / السيد العريني المغول . ص ١١٥ .
[٦] د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ط - دار النهضة العربية - بيروت ، سنة ١٩٧٠م . ص٩٠ .
[*] لم توضح المصادر التاريخية ما كان يتم فى هذه المجالس ربما لأنها كانت سرية .
[٧] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص٩٩ .
[٨] د / ثروت عكاشة : إعصار من الشرق . ص١٥٨ .

الكتابة فيها بحيث يصعب أن تزور علامتها . وإذا ورد عنها وعن السلطان توقيعان مختلفان في قضية واحدة ، لم ينظر إلا في التاريخ ، فيعمل بالأخير بكافة الأقاليم .[1]

وهذا يتنافى تماماً مع ما يجب أن يكون في مثل هذه الأحوال من حيث احترام أوامر السلطان مهما كان تاريخ الأوامر التي تصدرها تركان خاتون ولذلك نرى أن نفوذ هذه السلطانة وعشيرتها قد توغل في الدولة ، مما أضعف هيبة حكامها [2] . وهكذا تجرد الجهاز الإداري من كل أهمية ، كما زاد العداء بين الجيش الذي يدين بالولاء لأم السلطان وبين صاحب السلطة العليا في البلاد خوارزم شاه .[3]

---

[1] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٩ .

[2] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٢٣٤ .

[3] د / السيد العريني : المغول . ص١١٦ .

دور تركان خاتون في توطيد أركان الدولة الخوارزمية

بلغت الدولة الخوارزمية أوج عظمتها في عهد السلطان محمد علاء الدين خوارزم شاه - كما ذكرت آنفاً - لكن برز دور الملكة تركان خاتون في الحفاظ على دعائم هذه الدولة منذ اللحظة الأولى لعهد ابنها علاء الدين ، فإليها يرجع الفضل الأكبر في جلوس ابنها على عرش أبيه .

لما اشتد مرض السلطان تكش خوارزم شاه ، أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ، ويعرفونه شدة مرض أبيه فسار إليهم وقد مات أبوه ، فولى الملك بعده ، وتلقب علاء الدين بلقب أبيه ، وكان لقبه قطب الدين [1] . فلما ولي الحكم ، اجتمع الأمراء وأركان المملكة وأحيوا مجلساً للطرب احتفالاً بذلك ، وأجلسوه على سرير العرش [2] . فمما لاشك فيه أن الذي أرسل لعلاء الدين كي يتولى عرش أبيه هي والدته الملكة تركان خاتون وأهل بيتها من أمراء أتراك الكانكالي ، فقد كان الإبن الأكبر لتكش وهو ملكشاه قد توفى في حياة أبيه وذلك في ربيع عام ١١٩٧م / ٥٩٤هـ فخلفه على العرش ابنه الثاني محمد الذي لقب فى حياة أبيه قطب الدين ، ثم تلقب بعد وفاته علاء الدين وقد تأجل إعلان محمد شاه سلطاناً إلى يوم الخميس الثالث من أغسطس عام ١٢٠٠م / ٥٩٧هـ ، من جراء التنافس على العرش مع هندوخان ابن ملكشاه ، وكان يؤيد حقوق هذا الأخير سلاطنة الدولة الغورية الذين نجحوا - في هذا الوقت - في الاستيلاء على بعض مدن خراسان . [3]

ولم يتوقف أمر تركان خاتون في مساعدة ابنها في الجلوس على عرش أبيه ، بل ساعدته أيضاً في القضاء على الدولة الغورية - المنافس الإسلامي التقليدي للدولة الخوارزمية - إذ بعد أن استولى الغور على بعض مدن خراسان ، تصدى لهم خوارزم شاه الذى تمكن منذ عام ١٢٠٣م / ٦٠٠هـ من استرجاع أملاكه بخراسان ، وشرع في

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٠ ص٢٦٦ .
(٢) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٢٩٢ .
(٣) بارتولد : تركستان . ص٥٠٢ .

توسيع رقعة دولته منذ ربيع عام ١٢٠٤م / ٦٠١هـ وأجبر أهل هراة (*) على دفع أموال طائلة ، ومن المعلوم أن هراة لم تخضع مطلقاً لسلطان تكش ، في هذا الوقت كان شهاب الدين - ملك الغور - قد رجع من الهند إلى خراسان وزحف بجيشه قاصداً خوارزم رأساً ، فسارع محمد بالرجوع من مرو(**) وكشأن أسلافه فقد جهد في إعاقة تقدم العدو بغمر الأراضي بالمياه ، غير أن هذا لم يؤخرهم لأكثر من أربعين يوماً .. وتابع شهاب الدين انتصاره بأن حاصر كركانج (***) ، فهب أهلوها هبة رجل واحد للدفاع عن مدينتهم ، وتم توزيع الأسلحة على الجميع ، وكان الإمام شهاب الدين خيوقي " ركن الدين وحصن الملك " يحرض الناس من المنبر على قتال عدوهم مستشهداً في ذلك بحديث صحيح نصه : من قتل دون نفسه وماله فهو شهيد " ... وذكر بعض المؤرخين أن تسليح الأهالي لم يكن سوى خدعة حربية من طرف الملكة تركان خاتون ، التي بعثت رسولاً إلى خراسان ليبلغ ابنها بنبأ الغزو . وفي الوقت نفسه أصدرت أمراً بتسليح الأهالي جميعاً وعملت لهم خوذات من الورق ، وقد جعل منظر هذا الجيش الجرار الغور يحجمون عن القيام بهجوم سريع على المدينة التي كانت في واقع الأمر عاجزة تماما عن الدفاع عن نفسها لأنه لم يكن بها أحد من الجنود ، وفي خلال أسبوع وصل محمد بمائة فارس ثم أخذت الإمدادات تتوالى من جميع الجهات ، وبهذا تم إنقاذ المدينة .[1]

لما سلم خوارزم شاه هراة إلى خاله أمير ملك ، وسار إلى خوارزم أمره أن يقصد غياث الدين (****) محمود بن غياث الدين محمد بن سام الغوري ...وأن يقبض عليه وعلى أخيه على شاه بن خوارزم شاه ، فقبض أمير ملك عليهما وأرسل إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر ، فأمر بقتلهما ، فقتلا في يوم واحد ، واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه ، وذلك سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م .[2] كانت تركان خاتون في عظمة ما

(*) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان . الحموي: معجم البلدان . جـ ٥ ص ٣٩٦.

(**) مرو : أشهر مدن خراسان وقصبتها . المصدر السابق : جـ ٥ ص ١١٢.

(***)كركانج : أو الجرجانية هو اسم لقصبة إقليم خوارزم ، وهي مدينة عظيمة على شاطئ نهر جيحون ، وأهل خوارزم يسمونها بلسانهم كركانج فعربت إلى الجرجانية . المصدر السابق : جـ٢ ص١٢٣ .

(١) بارتولد : تركستان . ص٥٠٢ - ٥٠٤ .

(****) غياث الدين هو آخر ملوك الغورية ... كان عادلاً حليما كريما ، من أحسن الملوك سيرة وأكرمهم أخلاقاً . ابن الأثير : الكامل جـ١٢ص٢٦٧ .

(٢)ابن الأثير : الكامل . جـ١٢ ص٢٦٦ - ٢٦٧ بتصرف بسيط .

سمع قط بمثلها وفي جبروت [1] . وكانت كلما سمعت بملك استولى على مقاطعة أو ولاية استدعته ضيفاً إلى خوارزم ، وأغرقته ليلاً في نهر جيحون [**] ، وقصدها من ذلك أن يتوسع حكم أبنها السلطان من غير عناء ، وتستمر إدارته في دون غبار [2] ، فقد كانت تلك المرأة على القدر نفسه من الجرأة في سفك الدماء وحب الدنيا . [3] وقد استمرت في ذلك حتى قبل وقوعها في قبضة التتار ـ كما سيذكر لاحقاً ـ فقبل أن ترحل هروباً من التتار ارتكبت في خوارزم عملاً بربرياً فاحشاً ، ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين ابنها قد استولى على أملاكهم ، والذين كانوا في سجون خوارزم [4] . وكان ابنها خوارزم شاه يشاركها في هذا الأمر ، فبعد فتح الممالك الكبرى ، كان تعاملها مع الأمراء والسلاطين المغلوبين ورعاياهم يتسم بالبطش والقسوة فكانا يجلبان الأمراء والملوك إلى خوارزم ويضعونهم في القيود والأصفاد ... ولم يكن تعاملهما تجاه من يسدون لهما الخدمات ويتخذون جانبهما في الحرب ضد الأعداء يتسم بصدق النية ، وكانا يقدمان على قتلهم لأقل سوء ظن يساورهما . [5] هذا ولم يكن القتل هو الطريقة الوحيدة التي اتبعها خوارزم شاه وأمه تركان خاتون ، من أجل تثبيت أركان الدولة الخوارزمية ، بل اتبعوا سياسة أخرى مع أعدائهم هي سياسة المصاهرة ، من ذلك أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، لما أسر الأتابك [*] سعد بن زنكي صاحب فارس ، عفى عنه ليفرغ لغزو بغداد ، وزوج الأتابك سعد بامرأة من أهل بيت والدته تركان خاتون ، وشرط عليه أن يحمل كل سنة إلى الخزانة السلطانية من بلاده ثلث

---

[1] الذهبي : سير أعلام النبلاء . تحقيق / شعيب الأرناؤوط . ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة التاسعة سنة ١٩٩٣م . جـ٢٢ ص١٤٣ .

[**] نهر جيحون : اسم أعجمي وهو اسم وادي خراسان على وسط مدينة يقال لها جيهان ، وهو نهر يجري من موضع يقال له ربوساران. الحموي : معجم البلدان . جـ ٢ ص ١٩٦.

[2] الجويني : تاريخ فاتح العالم .جـ٢ ص٩٩ .

[3] إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .

[4] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص١٦١ .

[5] إقبال : تاريخ المغول . ص١٢٧ .

[*] أتابك : يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، و أصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان (٤٦٥ ـ ٤٨٥هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم . البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص١٤.

الخراج ، وعاد الأتابك بالخلع والتشريفات إلى كرسي ملكه .[1]

كان محمد خوارزم شاه يحرص على أن يستجيب لرغبات أمه تركان خاتون ، لما كان لها من سلطان ونفوذ كبير بين رجال الدين ، ورجال الجيش [2] . فكان لا يخالف أمرها في دقيق الأمر وجليله ، وكثيرة وقليلة ، لأمرين : أحدهما ما ذهب إليه من بر الوالدين ، والثاني أن أكثر أمراء الدولة كانوا من عشيرتها ، وبهم نازع الخطائية فانتزع الملك من أيديهم .[3]

أما عن دور الملكة تركان خاتون فى الصراع بين الخوارزميين والخطا ، فبداية لقد ورد اسم قبائل الخطا في المراجع الصينية منذ القرن الرابع الميلادي أي قبل ظهور الإسلام بزمن طويل ، وهم خليط من المغول والتانجوت ، وقد حدث في بداية القرن الرابع الهجري أن ظهر بين هذه القبائل زعيم قوي أخضع هذه القبائل لسلطته ونصب نفسه إمبراطوراً عليها [4] . ويدعى أميرهم ومقدمهم كورخان أي خان الخانات ... ولما قوى سلطان كورخان عظيم القراختاى أرسل جيشاً نحو ما وراء النهر ، فخضعت له كلها ... وبعد أن تيسر له هذا الفتح ، وقوى جيشه وازدادت خيوله وفرسانه ، أرسل قائده (أربوز) إلى خوارزم ، لينهب قراها ويعيث فيها سفكاً ، فأرسل أتسز ملك خوارزم رسولاً إلى (أربوز) يعلن له طاعته ودفع جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف ديناراً ذهباً . كما سيرسل إليه كل سنة أغذية ومواشي . فعاد (أربوز) بهذه المصالحة ظافراً .[5] حين تسلم تكش حكم خوارزم مكان أبيه أتسز ، استمر على دفعه للجزية المفروضة على أبيه ، ساعياً إلى إرضاء خان القراختاى الجديد بكل وسيلة ، حتى إنه حين دنا منه الموت أوصى بنيه بعدم محاربة كورخان الجديد وعدم الامتناع عن دفع الأموال إليهم ، فهو بهذا المال يجعلهم سداً دون من وراءهم من الخصوم الألداء .[6]

عندما جلس السلطان محمد على عرش الدولة الخوارزمية استمر حيناً على دفع المال ، وظلت الصداقة دائمة بين الطرفين ، وحين هاجم ملك الغور السلطان محمد

---

[1] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين. ص٦٢ بتصرف بسيط .
[2] د / السيد العريني : المغول . ص١١٦ .
[3] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧٧ .
[4] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٦٠ حاشية رقم (٢) .
[5] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٣٢٩ - ٣٣١ .
[6] المصدر السابق : جـ١ ص٣٣١ - ٣٣٢ .

طلب الأخير مدداً من كورخان فأرسل إليه عشرة آلاف رجل ، فتلاقى الجيشان وانهزم الغوريون ، فانتعش السلطان محمد ، مما جعله يشعر بالأنفة من دفع الجزية ، فماطل في دفعها سنتين أو ثلاث سنوات ، ولما أحس كورخان بتوانيه عن دفع ما عليه أرسل إليه وزير الملك "محمود تاي" لاستيفاء الجعل المحدد . أغلظ الوزير في القول أمام السلطان في خوارزم وكان السلطان في هذه الأثناء يستعد لمحاربة (القفجاق) فلم ير من الصلاح بأن يجيبه على خشونته بخشونة أكبر ، عملاً بوصية أبيه ... فأجابه إجابة حسنة ، ثم أوكل أمر الوفد إلى أمه تركان خاتون ورحل ، فأمرت بإكرامهم أحسن إكرام ، ومراعاتهم وتسليمهم الجزية السنوية ، وأرسلت مع الوزير بعض الأعيان ليعتذروا إلى كورخان عن تأخر السلطان في الدفع السنوي ، ويشرحون له تقدير السلطان له واتباعه آراءه كما هو الحال في السابق ، لكن "محمود تاي" كبير الكتاب أدرك تمرد السلطان ، وعرف مزاجه الذي لا يقبل هذه الإهانة ولا التملق ... فشرح لكورخان أحواله وقال : إن السلطان منافق في كل ما بدر منه ، ولن يدفع شيئا بعد الآن ، فلم يعر كورخان رسله اهتماما ولا أولاهم رعاية .[1]

كان على علاء الدين خوارزم شاه قبل أن يبدأ هجومه على الخطا ، أن يثبت أقدامه في الدولة الخوارزمية ، فولى على أقاليمها المختلفة ومدنها العديدة ، أشخاصاً من أقاربه وأقارب أمه ، وزود كل حاكم من هؤلاء الحكام بقوة عسكرية كافية ، حتى يضمن طاعة هذه المدن له في غيبته .[2] فولى الأمير كزلك خان ، وهو من أقارب أمه وأعيان دولته ، نيسابور [*]، وجعل معه عسكراً .[3] في سنة ٦٠٤هـ ١٢٠٧م . سار خوارزم شاه محمد بن تكش بجيوشه وقصد الخطا فحشدوا له والتقوه ، فجرت بينهم بعض المواقع وانهزم المسلمون وأسر جماعة منهم السلطان محمد خوارزم شاه واضطربت البلاد .[4]

---

[1] المصدر السابق : جـ١ ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

[2] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٥٧ .

[*] نيسابور : مدينة عظيمة ذات فضائل حسنة ، ومن الري إلي نيسابور مائة وستون فرسخاً. الحموي : معجم البلدان : جـ ٥ ص ٣٣١.

[3] ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٢٦٠ .

[4] الذهبي : العبر في خبر من غبر . تحقيق د / صلاح الدين المنجد ـ ط ـ حكومة الكويت ـ الكويت ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨م جـ٥ ص٨ .

فقد حدث قبل المعركة أن قام [برتنه] نائب خوارزم شاه بسمرقند*(*) ومعه أحد امراء مازندران(**) باتصالات مع القراخطاي على أن يخونا خوارزم شاه إذ وعدهما الكورخان بعده وعود ، وفي بداية المعركة انسحب [برتنه] ومن معه ، وانتهت المعركة بصورة غير حاسمة ، وكان من عادة السلطان أن يرتدي في وقت المعركة زياً يشبه العدو ، ففي أثناء الاضطراب وجد السلطان نفسه وبعضاً من خواصه (المرتدين زيا متشابها لزيه) وسط كتائب جيش القراخطاي وأمضى أياماً بينهم ، ولكنه تمكن من اغتنام أول فرصة لمغادرة صفوف العدو دون أن يلحظه أحد ورجع إلى جيشه فعم الجنود الفرح بعودته بعد مضي وقت كاف لنشر الشائعة لا باختفائه فحسب بل وبمصرعه .(1) فمن الناس من حلف أن السلطان قد قتل .(2)

ظل السلطان خوارزم شاه يؤدي الجزية للقراخطاي لفترة طويلة ، ولكنه في آخر الأمر وذلك في عام ٦٠٧هـ / ١٢١٠م أمر بأن يلقى سفير القراخطاي في النهر - نهر جيحون - وكان قد قدم إلى كركانج من أجل الجزية وأثار ثائرة السلطان حين جلس إلى جانبه على العرش ، وتلى ذلك أن احتل السلطان بخاري ، ثم تقدم نحو سمرقند بعد أن بعث برسله إلى السلطان عثمان ، وقبل قليل من ذلك كان عثمان قد طلب يد كريمة كورخان القراخطاي فقوبل طلبه بالرفض ، وأثار هذا حفيظته فسارع إلى عقد حلف مع محمد وذكر اسمه في الخطبة وسك النقود باسمه ، وقد أمر السلطان بتحصين سمرقند وعين الأمير برتنه من أقرباء تركان خاتون نائباً له ببلاط عثمان . وكان عثمان غاضبا بسبب رفض الكورخان تزويجه من ابنته لذا فإنه لم يستجب لطلبه وأخذ جهراً جانب خوارزم شاه ، فأرسل إليه مبعوثاً وأدخل الخطبة وسك النقود باسمه ، وكان رد الكورخان على ذلك أن أرسل ثلاثين ألفا من المقاتلين إلى سمرقند نجحوا في وضع يدهم على المدينة ، ولكن جنود القراخطاي أحجموا عن نهب المقاطعة امتثالا لأمر مليكهم الذي " كان يعد سمرقند خزانته ... وسحب الكورخان جيشه من سمرقند ، فسارع محمد خوارزم شاه باحتلالها ، وخرج عثمان لمقابلته وسلمه المقاطعة وانضم إلى جيشه

(**) سمرقند: بلد معروف مشهور وهو قصبة الصغد ، مبنية على جنوبي وادي الصغد مرتفعة عليه .الحموي : معجم البلدان .جـ٣ ٢٤٦.

(***) مازندران: اسم لولاية طبرستان . المصدر السابق : جـ٥ص ٤١ .

(1) بارتولد : تركستان . ص٥١٤ بتصرف بسيط .

(2) ابن كثير : البداية والنهاية.ط - مكتبة المعارف - بيروت - لم تذكر سنة الطبع جـ١٣ ص٤٨ .

وزحف الاثنان لغزو بلاد القراخطاي [1] . فسار خوارزم شاه بجيوشه وقطع نهر جيحون فالتقى بالخطا وعليهم [طاينكو] وكانت ملحمة عظيمة انهزم فيها الخطا ، وقتل منهم الكثير ، وأسر [طاينكو] واستولى خوارزم شاه على بلاد ما وراء النهر . [2]

مما سبق نلاحظ أن الملكة تركان خاتون قد أسهمت بدور كبير في الصراع بين الخوارزميين ودولة الخطا ، حيث استطاعت بجهودها الدبلوماسية أن تخفف من حدة التوتر القائم بين الطرفين فى البداية كما حافظت على تماسك الدولة الخوارزمية عندما أشيع أن ابنها قتل في حربه مع القراخطائيين . هذا فضلا عن مباركتها لغزو ابنها لبلاد الخطا ، عندما رأى فى نفسه القدرة على هذا الغزو ، وكان دافعها إلى ذلك توسيع رقعة نفوذها هي وابنها في الممالك الأخرى ، وقد كتب لها النجاح في ذلك بالقضاء على دولة الخطا .

هذا ولم يتوقف دور الملكة تركان خاتون على ما سبق فى توطيد أركان الدولة الخوارزمية ، فقد كانت تتخلى عن مناصرة أهل بيتها وتتخذ طريق الحياد فى الثورات التى قام بها بعض مماليك السلطان مثل ثورة كزلي خان .

ذكر آنفاً أن جريدة ديوان الجيش على عهد خوارزم شاه استملئت على ما يقارب أربعمائة ألف فارس ، لكن في نفس الوقت ، كان لخوارزم شاه عشرة آلاف مملوك كل منهم يصلح للملك [3] ـ أى يتطلع للملك فلا يعقل أن يصلح عشرة آلاف للملك ربما يكون السبكي قد بالغ فى ذلك ـ فكان من الطبيعي والأمر كذلك أن تتطلع بعض نفوس هؤلاء المماليك ـ هذا فضلا عن طبيعة الأتراك الميالة للحكم ـ إلى منافسة السلطان خوارزم شاه في الملك ، خاصة عشيرة أمه الذين لم يكونوا يرون في خوارزم شاه فضل مزية عليهم ، وقد تمثل ذلك في ثورة كزلي خان على السلطان خوارزم شاه .

فقد كان كزلى تركياً من أقرباء أم السلطان ، فوض إليه إمارة نيسابور وحل أمورها ومعضلاتها كافة ، وقد تخوف كثيراً من السلطان بسبب ما نقل إليه عنه ... وكان يظن أن الأسوار المنيعة وكثرة الدرهم والدينار والإمارة ، كافية لتمنع السلطان عن الوصول إليه . وأرسل إلى دار الملك خوارزم بطلبات قصده أن يموه على السلطان

---

[1] بارتولد : تركستان . ص٥١٠ ـ ٥١٥ .

[2] الذهبي : العبر في خبر من غبر . جـ٥ ص١٥ .

[3] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق د / عبد الفتاح الحلو ط ـ هجر للطباعة . مصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢م . جـ١ ص٣٣٠ .

الذي كان مشغولاً ، وحين وصل رسوله إلى خوارزم واطلع على رسالته أدرك السلطان فوراً أن أميره انحرف عن جادة الصواب ، وفوراً تحركت الرايات السلطانية ... وفر رسول كزلي إلى مدينة شادياخ (*) وحكى له ما رأته عيناه ، فلاذ بالفرار ، بصحبة أولاده وأنصاره وقصد طريق كرمان .(١) إذ لما وصل خوارزم شاه إلى خوارزم من حربه مع الخطا واتته الأخبار بما فعله كزلي خان ... فسار إلى خراسان وتبعته العساكر ... فدخل خوارزم شاه نيسابور ، وأصلح أمرها ، وجعل فيها نائباً .(٢) ولما لم يتمكن كزلي من السيطرة على كرمان ، وكان قد بلغه اتجاه السلطان نحو خراسان ، عاوده الطمع في الاستيلاء على أرض شادياخ . فعاد فوراً من كرمان نحو شادياخ ... ولكن تصدى له أحد قواد السلطان القريبين من شادياخ ، وعلم كزلي أن السلطان على أبواب هراه ، ففر من مكانه ، وتشاور مع بقية صحبه لاتخاذ الوجهة المناسبة فبعضهم عرض عليه طلب توسط السيدة الوالدة ـ الخاتون ـ فاستصوبه وقرر الاتجاه نحو خوارزم .(٣)

وعقب دخول السلطان نيسابور ٣٠ مارس ١٢٠٨م / ٦٠٥هـ ، هرب ابن لكزلي ـ أو كزلك كما يدعوه ابن الأثير ـ إلى ما وراء النهر يطلب اللجوء إلى القراخطاي ، ولكن قوات الخوارزميين أدركته ، وقتل هو وأغلب أصحابه (٤) . وحين وصل كزلي إلى خوارزم وعدته تركان خاتون بوعود غير أكيدة ، وطلبت إليه أن يرتدي خرقة المتصوفين ويجاور تربة السلطان تكش ، فلعل السلطان بهذه الحيلة ، يصفح عن زلاته ، واستجاب لاقتراحها ولبس لباس المتصوفة وجلس على تربة تكش . لكن تركان خاتون فوجئت بقطع رأسه ونقله إلى السلطان وهكذا أخمد أوار الفتنة .(٥)

وعلى الرغم من أن الجويني ـ صاحب الرواية السابقة ـ كان من المعاصرين لهذه الأحداث أو من القريبين لفترة حدوثها ، إلا أن الدراسة تميل إلى ما ذكره بارتولد في هذا المضمار ، بأن كزلي ما إن عمل بنصيحتها حتى أمرت بقتله وأرسلت برأسه إلى ابنها ، وفي هذا يمكن الاستدلال على أن الملكة لم تكن آنذاك لتقدم على تأييد العصاة من

(*) الشادياخ : مدينة بنيسابور أم بلاد خراسان . الحموي : معجم البلدان. جـ٣ ص٣٠٥ .

(١) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٣١١ ـ ٣١٢ بتصرف بسيط .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٢٦٥ .

(٣) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٣١٢ ـ ٣١٣ .

(٤) بارتولد : تركستان . ص٥١٨ .

(٥) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٣١٣ ـ ٣١٤ .

أهلها [1] ويؤيد رأي بارتولد أيضا بأن الملكة تركان خاتون لم تكن تؤيد ثورة كزلي خان على ابنها ، أن الأحداث التاريخية التي وسعت من هوة الخلاف بين السلطان وأمه - كما سيذكر لاحقاً - لم تكن حدثت بعد ، وربما يكون طلبها من كزلي خان أن يفعل ما فعل ، كي تتمكن من القبض عليه ، وقتله بطريقة لا تغضب باقي عشيرتها التي هي عشيرة كزلي خان في نفس الوقت .

[1] بارتولد : تركستان . ص٥١٩ .

موقف تركان خاتون
من خروج صاحب سمرقند على خوارزم شاه

لما انتصر خوارزم شاه على الخطا ، صحبه عثمان أمير سمرقند إلى كركانج لعقد قرانه على كريمة خوارزم شاه وقد دامت الاحتفالات بعض الوقت ، ولكن عثمان لما أراد العودة إلى سمرقند أصرت تركان خاتون وفقا لعادات الترك على أن يبقى العريس عاماً كاملاً بمنزل صهره فلم يملك إلا الإذعان ، ولما استأنف محمد خوارزم شاه في ربيع عام ١٢١١م / ٦٠٨هـ حملته على القراخطاي وصل بمفرده إلى سمرقند ، وسرعان ما تبين له أن غياب الخان قد أثار خواطر الرعية وعداءهم له ، فلم يستطع السلطان إزاء هذا إلا أن يأمر بإرسال عثمان وزوجه الشابة إلى سمرقند ، فغادر عثمان خوارزم محاطاً بما يليق به من مظاهر التكريم تاركاً أخاه الأصغر بها ، وعاد إلى عاصمته .[1]

وبعث معه شحنة [*] إلى سمرقند على ما كان رسم الخطا ، ولما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه شحنة لخوارزم شاه ، أقام معه نحو سنة ، فرأى من سوء سيرة الخوارزميين ، وقبح معاملتهم ، ما ندم معه على مفارقة الخطا[**] فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه ويعود إلى طاعته ، وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديماً وحديثاً ... ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنه خوارزم شاه .[2] ، بل إن قرائن الأحوال فوق هذا تشير إلى أنه فعل ذلك في اتفاق تام مع رعيته ، ولم تلبث الأخبار أن تواترت إلى محمد خوارزم شاه بأن عثمان يعامل ابنته معاملة غير كريمة وأنه يجاهر بتفضيل الأميرة القراخطانية عليها ، بل إن ابنته أجبرت على القيام بخدمة ضرتها ، وأخيراً في عام ١٢١٢م / ٦٠٩هـ وصل الخبر بأن

---

(١) بارتولد : تركستان . ص٥٢٣ .

(*) الشحنة : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة وهو رئيس الشرطة والموكل بالأمن في بلد من البلاد . البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص١٩٣ .

(**) لم يلبث عثمان بعد رجوعه إلى سمرقند أن تولاه الاستياء والسخط من مسلك الخوارزميين الذين إنما جاءوا إلى بلاده في الأصل كمحررين لها من الكفار - الخطا البوذيين - وقد دفعه هذا إلى إعادة علاقاته مع القراخطاي . بارتولد :تركستان ، ص٥٢٤.

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٢٦٧ - ٢٦٨ .

أهل سمرقند قد هبوا بتحريض من عثمان وقتلوا أغلب الخوارزميين المقيمين بالمدينة ، أما ابنة خوارزم شاه فقد اعتصمت بالقلعة وقبل عثمان بعد ممانعة شديدة أن يبقى على حياتها .[1]

وصل الخبر إلى خوارزم شاه ، وغضب غضباً شديداً ، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء ، فمنعته أمه عن ذلك ، وقالت : إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض ، ولم يرض كلهم بما كان من هذا الرجل ، فأمر بقتل أهل سمرقند ، فنهته أمه ، فانتهى - ورجع عن قراره - ، وأمر عساكره بالتجهز إلى ما وراء النهر ونزل على سمرقند ... وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزم شاه ، فقبل الأرض وطلب العفو ، فلم يعف عنه ، وأمر بقتله ، فقتل صبراً ، وقتل معه جماعة من أقاربه .[2] ويقال : إن خوارزم شاه أراد الإبقاء على حياة عثمان ولكن ابنته (خان سلطان) لم توافق على العفو عن زوجها ، فأعدم في الليلة التالية .[3]

هذا وقد اتسم موقف تركان خاتون من خروج صاحب سمرقند على السلطان خوارزم شاه بالحكمة والتعقل ، فهي فضلاً عن مباركتها لزواج الأمير عثمان من ابنه ابنها كي يظل تحالفهما قوياً ومترابطاً ، منعت ابنها من الإقدام على عمل خطير هو قتل الأبرياء من السمرقنديين وغيرهم في إقليم خوارزم ، وهو موقف يحسب لها .

---

(1) بارتولد : تركستان . ص٥٢٤ .

(2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

(3) بارتولد : تركستان . ص٥٢٥ .

موقف تركان خاتون
من صدام خوارزم شاه برجال الدين

بدأ منذ النصف الأول للقرن الثاني عشر الميلادي / السادس الهجري ظهور أسرة من الوعاظ بمدينة بخاري توارثت لقب [صدر جهان] أباً عن جد ... وكان من الطبيعي أن يؤدي اتساع نفوذهم في الشئون السياسية إلى صدام مع خانات سمرقند.[1]

وكان الملقب بصدر جهان على عهد الدولة الخوارزمية صدر جهان برهان الدين محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن مارة البخاري ، وكان رئيسا للحنفية ببخاري وكان هو صاحبها على الحقيقة يؤدي الخراج إلى الخطا ، وينوب عنهم في البلد ، وقد حج إلى الأراضي المقدسة ، ولم تحمد سيرته في الطريق ... فسماه الحجاج صدر جهنم[2] . كما قدم - قبل ذهابه للحج - إلى بغداد في جمع من الفقهاء .[3]

كانت تركان خاتون وأتراك الكانكالي يرتكزون على جماعة رجال الدين في كل من خوارزم وما وراء النهر ، ولما كان السلطان محمد خوارم شاه يعتبر نفوذ هذه الجماعة عقبة في طريقة ، فقد سعى لسلبهم قوتهم ونفوذهم ، وكانت هذه المسألة من العوامل الرئيسية للخلاف بينه وبين أمه .[4]

على الرغم من أن السلطان تكش خوارزم شاه كان فقيهاً على مذهب أبي حنيفة [5] ، وكان ابنه علاء الدين خوارزم شاه فقيهاً حنفياً [6] . لكن ليس من المستبعد أن يكون نفوذ المشايخ على الأهالي قد أثار مخاوف السلطات الزمنية ، لذا فقد جهد المشايخ منذ البداية في تحاشي ما من شأنه أن يجر إلى صدام بين الطرفين .[7]

وقد عمل خوارزم شاه على الإساءة إلى مشاعر أمه ومشاعر رجال الدين عندما أمر بقتل الشيخ مجد الدين بغدادي صدر جهان - وكان ذلك الشيخ الشاب من

---

(1) بارتولد : تركستان . ص٥٠٨ .
(2) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١ ص٣٣١ .
(3) الذهبي : سير أعلام النبلاء .جـ٢٢ ص١٩٦ .
(4) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص١٢٦ - ١٢٧ .
(5) ابن كثير : البداية والنهاية . جـ١٣ ص٢٢ .
(6) المصدر السابق : جـ١٣ ص٨٩ .
(7) بارتولد : تركستان . ص٥٣٧ .

تلامذة الشيخ نجم الدين الكبرى مؤسس الطريقة الكبراوية وكغيره من كبار مشايخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين فإن الشيخ نجم الدين كان ينتسب إلى المدرسة التي أسسها ببلاد ما وراء النهر مهاجر من الغرب هو الشيخ أبو يعقوب يوسف البزنجردي الهمداني (المتوفى عام ١١٤٠ م/ ٥٣٥هـ) ويندر أن تلتقي باسم مؤسس الطريقة وأتباعها في المصنفات التاريخية ، ولكنهم تمتعوا دون شك بتأثير كبير وسط الكتل الشعبية ... وكان الشيخ مجد الدين بغدادي يتمتع بالحصافة واللباقة ، وقد حدث أن كتب إليه الإمام شهاب الدين خيوقي الذي كان يشغل آنذاك وظيفة الوكيل ببلاط خوارزم ، كتب إليه رسالة يعبر فيها عن أمله في أن يستطيع بمعاونة الشيخ " أن يجد مخرجاً من ظلمات الدنيا إلى نور الطاعة وأن يقطع خيل الشواغل بسيف المجاهدة " ، فكان رد الشيخ مجد الدين أن أفهم الوكيل أنه لا حرج عليه في خدمة السلطان وأنه بهذا قد تسنح له الفرصة لإعانة المظلومين وإغاثة الملهوفين فيبلغ بهذا سعادة دنياه وآخرته أكثر مما يبلغها بطريق الصوم والصلاة ، لكل هذا فمن العسير إيضاح أسباب الصدام بين الشيخ وحكومة خوارزم ، ومؤرخو القرن الثالث عشر الميلادي / السابع الهجري يجهلون هذا الحادث تماماً بينما تدعي جميع المصادر المتأخرة بالاتفاق أن الشيخ قد قتل لريبة في وجود علاقة آثمة بينه وبين والدة السلطان ، ومن المستحيل قبول هذا القول ؛ لأن الملكة كان لها في هذا الوقت حفيد ، لذا فإن العلاقة الوثيقة بين الملكة والشيخ يجب فهمها في الغالب على أن المقصود بها أن رجال الدين قد أخذوا جانب الطبقة العسكرية في نزاعها مع العرش مثلما حدث في حالات أخرى .[١]

وقد قتل صدر جهان عند رحيل تركان خاتون عن خوارزم ، وأقام السلطان عند نقله إلى خوارزم مقامه في رئاسة الحنفية والخطابة ببخاري ، مجد الدين مسعود بن صالح الفراوي أخا نظام الملك وزيره ، ولقبه بصدر جهان .[٢]

هذا ولم يحدث مقتل مجد الدين وفقاً لرواية المؤرخين ، إلا نتيجة لثورة غضب جامحة تملكت خوارزم شاه ، الذي سرعان ما ندم على فعلته ... كذلك لم تتخذ أية إجراءات جديدة ضد رجال الدين من أهل خوارزم ، إلا أنه تم إبعاد من خيف منهم على العرش من بين علماء بخاري وسمرقند .[٣]

---

[١] بارتولد : تركستان . ص ٥٣٦ ـ ٥٣٧ .

[٢] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص ٦٨ ـ ٦٩ .

[٣] بارتولد : تركستان . ص٥٤٠ .

موقف تركان خاتون من غزو خوارزم شاه لبغداد

كان مقتل صدر جهان بأمر من السلطان خوارزم شاه - وعلى غير رضى من الملكة تركان خاتون - من الأمور التي أدت إلى زيادة الخلاف بينهما ، وكان من الطبيعي أن ينعكس ذلك على أحداث الخلاف الذي دب بين خوارزم شاه والدولة العباسية .

عندما جرت المنازعات في أيام السلطان تكش على ملك العراق ، وانهزم جيش بغداد أمام تكش ... كان الخليفة في كل مناسبة يدفع خانات القراختاي سراً لحرب السلطان محمد ، فقد كان يرسل الرسائل ويكاتب سلاطين الغور مراراً ، وقد كشفت هذه الأسرار فيما بعد حين دخل السلطان غزنين - غزنة [*]- وفتش خزائنها ، فرأى بأم عينه أن الخليفة كان يراسلهم ويحضهم عليه .[1]

فقد استولى خوارزم شاه على عاصمة الغوريين سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م ووضع يده على خزائن شهاب الدين الغوري فعثر على رسائل رسمية من الخليفة يحثه فيها على مهاجمة السلطان محمد والقضاء عليه [2] ، وأدرك حينئذ أن معاداة الغوريين له كانت بدافع دار الخلافة .[3] قبل أن يتوجه خوارزم شاه إلى بغداد أراد أن يكسب عمله هذا صبغة شرعية حتى يأمن معارضة المعارضين من رجال دولته ، لذلك جمع رجال الدين في بلاده في مجمع عام استطاع في هذا الاجتماع أن ينتزع منهم قراراً بشرعية عزل الخليفة العباسي ، بعد أن حثهم على إثبات عدم صلاحيته للخلافة ، بل استطاع أن يحمل المجتمعين على الاعتراف بأن العباسيين ليسوا أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، وأنهم اغتصبوها من العلويين أصحاب الحق الشرعي فيها .[4] طلب خوارزمشاه من الخليفة الناصر لدين الله ، بأن تجرى له الخطبة في بغداد ، وأن يتنازل له الخليفة عن السلطة الدنيوية مثلما حدث زمن البويهيين والسلاجقة . على أن حرص الخليفة الناصر على توطيد سلطانه أدى إلى اتخاذ كل ما يكفل له تحقيق غرضه

---

[*] غزنة : مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهي الحد بين خراسان والهند . الحموي : معجم البلدان . جـ٤ ص ٢٠١.

[1] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص٢٩ .

[2] د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص٧٠ .

[3] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٣٢٨ .

[4] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٤٨ .

من وسائل ... غير إن خوارزم شاه أذاع أن الخليفة حرض الغوريين في غزنة على مهاجمته ... وأعلن خوارزم شاه عزل الناصر ، وأسقط اسمه من خطبة الجمعة والنقود ، وقرر الزحف على بغداد ... غير إنه تعرض لعواصف ثلجية في كردستان ، وحلت به خسائر فادحة ، ومن بقى من جيشه تخطفه الأكراد ، فلم يرجع منهم إلى خوارزم إلا عدد قليل.[1]

على الرغم أن خوارزم شاه قطع الخطبة للخليفة الناصر من بلاد خراسان وكذلك قطعت خطبة الخليفة في ما وراء النهر ، لكن بقت خوارزم وسمرقند وهراة على الخطبة للخليفة ، فإن أهل هذه البلاد كانوا يخطبون لمن يختارون ولا يعارضون في ذلك [2] فبقيت الخطبة قائمة في خوارزم [*] دار مملكتهم العظمى [3] ، وكانت خوارزم واقعة تحت سيطرة تركان خاتون مما يدل على معارضتها لغزو خوارزم شاه لبغداد عاصمة الخلافة الإسلامية ، وعلى الجانب الآخر أعرب محمد خوارزم شاه عقب تلك الكارثة عن ندمه وبذل جهده ولو في الظاهر ليتصالح مع بغداد ، وليس بمستبعد أن يكون خوارزم شاه قد وجد نفسه مضطراً للتنازل للرأي العام ، وأن حذف اسم الخليفة الناصر من الخطبة قد تم قبل غزوه لبغداد ، ولعل السبب في بقاء الخطبة في بعض المدن بما في ذلك خوارزم نفسها ربما كان له بعض الصلة بالخصومة بين السلطان ووالدته ، حيث أخذت طبقة العسكريين ورجال الدين جانب الوالدة ... إذ على الرغم من إعدام - صدر جهان - فإن السلطان ظل بصفة عامة ينفذ رغبات والدته حتى لحظة زحفه على بغداد [4] ، ولعل السبب في رضوخ السلطان لرغبات أمه - على الرغم من معارضتها لمقتل صدر جهان ومعارضتها لحملته على بغداد - يرجع إلى إخفاقه في حملته ، فلولا إخفاقه لكان للعلاقة بينه وبين أمه وضع آخر .

---

[1] د / السيد العريني : المغول . ص١١٣ .

[2] القلقشندي : مآثر الإنافة في معالم الخلافة . تحقيق/ عبد الستار فراج - ط - حكومة الكويت - الكويت - الطبعة الثانية سنة ١٩٨٥م . جـ٢ ص٦٠ .

[*] يقول الحموي عن خوارزم على عهد تركان خاتون : وكنت رأيتها في سنة ٦١٦هـ قبل استيلاء التتر عليها وتخريبهم إياها ، فلا أعلم أني رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالاً وأحسن أحوالاً ، فاستحال ذلك كله بتخريب التتر إياها . معجم البلدان: جـ٢ ص١٢٣ .

[3] السبكي : طبقات الشافعية الكبرى . جـ١ ص٣٣٨ .

[4] بارتولد : تركستان . ص ٥٣٦ - ٥٤٠ .

تدخل تركان خاتون في ولاية العهد

كان خوارزم شاه يحرص على أن يستجيب لرغبات أمه ، تركان خاتون ، لما كان لها من سلطان ونفوذ كبير بين رجال الدين ، ورجال الجيش ، فما اضمرته من كراهية ، وما أذاعته من افتراءات على جلال الدين ، أصدق أبناء محمد خوارزم شاه وأقربهم إلى قلبه أدت إلى تحطيم كيانه ، وخرج من القصر ، ليتولى أمر غزنة .[1]

تم اختيار أوزلاغ شاه ولياً لعهد خوارزم شاه بأمر منها وعلى خلاف رغبة السلطان محمد ، فعلى الرغم من أن ولديه جلال الدين وركن الدين كانا أكبر من ابنه الثالث أوزلاغ فقد تنازل السلطان عن ولاية العهد للأخير بعد إصرار تركان خاتون ولقب بأبى المظفر قطب الدين .[2]

وقسم الملك بين أولاده ، فعين لكل واحد منهم بلاداً ... وسبب تخصيصه لأوزلاغ شاه بولاية العهد دون أخويه ... اتباع السلطان رأي والدته تركان خاتون ، وتحريه مرضاتها ، إذ كانت أم قطب الدين دون سائر أمهات الأولاد من قبيلة بياووت عشيرة تركان خاتون ، وهي فرع من فروع يمك .[3] وكان أهلها كأهل تركان خاتون من الأتراك ذوى النفوذ وكانوا من أعوان والدة خوارزم شاه .[4]

فوض السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ملك غزنة ... وما يليها من الهند إلى ولده الكبير جلال الدين منكبرتي ، واستوزر له الصدر شمس الملك شهاب الدين ألب الهروي ، حيث كان لا ير انفصال جلال الدين عن خدمته .[5] كان يحبه ويتوسم فيه الرشاد والعقل وكان في حاجة إليهما ، فكان يصطحبه في أغلب حروبه .[6]

لما كان خوارزم شاه قد عدل عن ولاية العهد وابعد ابنه الأكبر جلال الدين منكبرتي ، وذلك مرضاة لأمه ، ولعدم غضب حزبها العسكري والديني الموالي لها ،

---

(1) د / السيد العريني : المغول . ص١١٦ .
(2) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .
(3) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧١ .
(4) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ .
(5) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧١ - ٧٢ .
(6) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٩٤ .

ولفشله في غزو بغداد ، ولشرعه في قتل صدر جهان وندمه على ذلك ، فإنه سرعان ما عدل عن ذلك وجعل جلال الدين منكبرتي ولياً للعهد من بعده ، لأنه وجد فيه الشخص الوحيد الذي يستطيع مقاومة المغول واستعادة أملاك الدولة الخوارزمية .[1]

اشتد المرض بالسلطان بالجزيرة - التي لجأ إليها فاراً من التتار - وبلغه أن والدته قد أسرت أحضر جلال الدين وأخويه الحاضرين بالجزيرة ، أوزلاغ شاه وآق شاه ، وقال : " إن عرى السلطنة قد انفصلت والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت وهذا العدو تأكدت أسبابه وتشبثت بالملك أظفاره وتعلقت أنيابه ، وليس بأخذ ثأري منه إلا ولدي منكبرتي . وهأنذا موليه العهد . فعليكما بطاعته ، والانخراط في سلك تباعته ، وشد سيفه بيده على وسط جلال الدين " ، فلم يمكث بعدها إلا أياماً قلائل حتى قضي نحبه ، ولحق بربه ، فنقل إلى حفرته بحسرته .[2]

وقد أدى العدول عن ولاية العهد لجلال الدين منكبرتي ، إلى حدوث الكثير من القلاقل والفتن في الدولة الخوارزمية ، التي لم تكن في حاجة إليها في ذلك الوقت مع وجود الخطر المغولي المتربص بها ، فعند عودة جلال الدين إلى خوارزم وإعلان خلع أوزلاغ شاه وتعيينه بدلاً منه ، كان أول من شق عصا الطاعة عليه وأدى إلى فساد أمره وفراره من خوارزم هو خال أوزلاغ شاه ، أي قتلغ خان [3] . كما أن تركان خاتون لما تغير من موقفها المعارض لجلال الدين حتى في أصعب مراحل حياتها ، يقول النسوى عن ذلك : [4] " حدثني بدر الدين هلال الخادم ، وكان من جملة خدامها ، ولما يأس من خلاصها ونجا بنفسه سالماً إلى جلال الدين قال: قلت لها : هلمي نهرب إلى جلال الدين ولد ولدك . وفلذة كبدك ، فإن الأخبار قد تواترت بشوكته . قالت : بعداً له وسحقاً ، وكيف يهون علي أن أكون في نعمة ابن " أي جيجاك " - أم جلال الدين منكبرتي - وتحت ظله ، يعني أم جلال الدين . بعد ولدي أوزلاغ شاه وآق شاه ، والأسر عند جنكيزخان وما أنا فيه من الذل والهوان أطيب إلي من ذلك ، وكانت تبغض جلال الدين بغضاً شديداً .

---

[1] د/ فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص١٢٢ - ١٢٣ .

[2] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص١٢٠ .

[3] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٤ - ٨٥ .

[4] سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٦ - ٩٧ .

عزل نظام (*)الملك من وزارة الدولة الخوارزمية

كان الخوارزميون قد عهدوا بحكم أقاليم دولتهم إلى رجال أطلقوا على الكثيرين منهم لقب وزير ، فكان لكل مدينة أو مقاطعة حاكم يلقب في غالب الأحيان بهذا اللقب ، وكان الوزراء يعيشون في الأقاليم التي تسند إليهم الوزارة فيها من إقطاعات مقررة يمنحهم السلطان إياها ، فيستولون على دخلها وتكون لهم بمثابة ضيعات خاصة ، هذا إلى جانب مرتباتهم بحكم الوظيفة ، أما ما يدفعه الوزير لخزانة الدولة سنوياً فكان في العادة عشر خراج الإقليم الذي يحكمه .(١) كان منصب الوزارة أكبر عون للخوارزميين طالما كان السلطان الخوارزمي مهيمنا على شئون الدولة ، ولكن لما ازداد نفوذ الأتراك وتحكم تركان خاتون وعشيرتها في الدولة بحيث أصبحت تنافس نفوذ السلطان نفسه ، صار هذا المنصب من أكبر عوامل إضعاف الدولة الخوارزمية ، إذ خرج الوزراء على طاعة السلطان واستبدوا بموارد الدولة وثرواتها ، وأصبحوا لا يرسلون إلى خزانة الدولة إلا ما يتصدقون به على السلطان.(٢)

وعلى الرغم من إعدام صدر جهان فإن السلطان ظل بصفة عامة ينفذ رغبات والدته حتى لحظة زحفه على بغداد - كما ذكر آنفاً - واستجابة لرغبة تركان خاتون عين السلطان محمداً بن صالح وزيراً له وذلك بعد عزله لنظام الملك محمد الهروى (٣) . وكان محمد بن صالح هذا غلام تركان خاتون والدة السلطان محمد خوارزم شاه ، ولم يكن له مثيل في ذلك الوقت في حسن خطه وفرط جوده وكرمه ، ولكنه لم يكن له حظ ولا نصيب من الفضائل الشخصية والكمالات الإنسانية (٤) . فأجابها السلطان إلى ذلك على كره باطن ، وإنكار في الصدر كامن ، وفوض أمر الوزارة إلى المذكور (٥) . وقد تضايق السلطان من هذا التصرف ، وتغير وغضب ، ولم يشرف أحداً بهذا المنصب رغم

(*) النظام : صورة الاجتماع والالتئام . وقد استعمل اللفظ مضافاً إلى ياء النسب " النظامي " كلقب للوزراء ومن في معناهم . البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص٣٤٧ .

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٨١ حاشية رقم (٣) .

(٢) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٩٨ .

(٣) بارتولد : تركستان . ص٥٤٠ .

(٤) د / حربي سليمان : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير . ص٣١٠ .

(٥) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧٧ .

وجود العديد من العظماء من أصحاب القلم ، وكبار أهل الفضل والكرم في بلاطه ... ولما أمضى بن صالح مدة سبع سنوات مستقلاً بإدارة الوزارة ، اتهم بالتصرف في أموال الديوان .[1]

كان للسلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه بعض عيونه الموكلة بنظام الملك ... فكانت تبلغه عنه بلاغات لا يرتضيها مما يزيده على توبيخ وملام يسمعه على لسان بعض الخواص ... ولما استقر السلطان بنيسابور بعد عودته من العراق عزل نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح عن الوزارة . وسبب ذلك أنه كان ينقم عليه أحداثاً ، ويحقد عليه عادات ، منها شرهه بالبراطيل [*] ، وتعريضه المهام بها للتعطيل والمصالح للتبطيل ، وبالجملة كان الرجل قليل الحظ فى مقومات الوزارة ولم يوجد فيه منها سوى المظاهر والكرم المفرطين .[2]

إذ لم تتسع الخصومة الشديدة بين السلطان وأمه إلا بعد رجوعه من العراق ، وذلك خلال مقامه بنيسابور في فبراير ومارس عام ١٢١٨م / ٦١٥هـ ، فقد اتهم السلطان نظام الملك بالعجز والقصور والابتزاز فعزله وأرسله إلى خوارزم قائلاً : أرجع إلى باب أستاذك " يعني والدة السلطان والجدير بالملاحظة أن هذه الألفاظ فيها تعريض بالملكة غير أن سلوك الملكة زاد بدورة من حدة الخصومة ، فقد استقبلت تركان خاتون الوزير المعزول باحتفال كبير عند وصوله عاصمة خوارزم .[3]

كان يوم وصوله إليها يوماً مشهوداً ، لتقدم تركان خاتون إلى أهلها وضيعهم وشريفهم ، وكبيرهم وصغيرهم بالتقاء المواكب الناصرية - نسبة إلى الوزير نظام الملك ناصر الدين محمد بن صالح - وتأخر برهان الدين رئيس أصحاب أبى حنيفة بخوارزم وصدورها ، فجاء في أخريات الناس واعتذر في تأخيره بالضعف . فقال الوزير : نعم لضعف النية لا لضعف البنية ، ثم أطلق الأتراك عليه بعد أيام بمائة ألف دينار لما نقم عليه من تأخره .[4]

---

[1] د / حربي سليمان : المؤرخ الكبير غياث الدين خواندمير . ص٣١٠ .

[*] البراطيل : هي الأموال التي تؤخذ من ولاة البلاد ومحتسبيها وقضاتها وعمالها - الرشاوي - البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص٦١ .

[2] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٧٦ - ٧٨ .

[3] بارتولد : تركستان . ص٥٤٠ .

[4] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٨٠ .

وكان كريم الدين الطيفورى عاملا بنواحي خوارزم من قبل السلطان ـ والعامل هو الوالي عندهم ـ فقبض عليه ناصر الدين وصادره على مال جليل . فلما تحصل منه قصد خدمة السلطان بما وراء النهر وشكا إليه سوء ما عامله به ناصر الدين ، فوجه السلطان عز الدين طغرل ، وكان من خواصه إلى خوارزم وأمره بحمل رأس ناصر الدين إليه ، فلما قارب خوارزم وقد علمت تركان خاتون قبل وصوله القضية وما وجه لأجله ، أحضرته بغير اختياره إلى بابها ، وتقدمت إليه بأن يحضر دار الديوان وقت جلوس ناصر الدين في دست الوزارة . وكانت قد فوضت إليه وزارة قطب الدين أوزلاغ شاه ، ولي عهد السلطان ، صاحب خوارزم ويبلغه على رؤوس الأشهاد سلام السلطان ويقول له : إن السلطان يقول مالي وزير غيرك ، فكن على رأس عملك . فليس لأحد في سائر أقاليم الملك أن يخالف أمرك ، وينكر قدرك ، ففعل المذكور ذلك وما كاد ، وخالف المرسوم والمراد ، واستمرت أوامر ناصر الدين بخوارزم وخراسان ومازندران . دون سائر الأقاليم نافذاً ، وأحكامه مطاعه .[1]

ونظراً لأن السلطان وجد نفسه مضطراً حتى إلى قبول هذا ، فمن الواضح إذن أن سلطته في الأقاليم التي كانت تحت إدارة تركان خاتون كانت غير معترف بها في واقع الأمر[2] . يقول النسوى معلقا على ذلك الأمر[3] : " وعجز ذلك السلطان القاهر بعظمته وتسخيره الجبابرة وإذلاله للأكاسرة عن شفا غيظه في بعض غلمانه ، ليعلم أن الدنيا لم يصف مشاربها عن قذى ومواهبها عن أذى " . وقد فسد النظام الإداري ، بعد أن استعاض خوارزم شاه عن الوزير بهيئة مؤلفة من ستة وكلاء ، لابد أن تصدر قراراتهم بإجماع الآراء حتى يتحقق تنفيذها ، ومع ذلك فإن هذا الإجراء زاد من تعقيد الأمور ، وأظهر الناس أساهم وأسفهم لما حدث من عزل الوزير ، برغم ما اشتهر به من الأعمال التعسفية ، وذلك لأن إرضاء الوزير في أمر من الأمور ، لأيسر لهم من إرضاء ستة وكلاء .[4] واستمر الأمر على ذلك إلى أن سقطت الدولة الخوارزمية .[5]

---

[1] المصدر السابق : ص٨٠ ـ ٨١ .
[2] بارتولد : تركستان . ص ٥٤٣ .
[3] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص ٨٢ .
[4] د / السيد العريني : المغول . ص١١٦ .
[5] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٨٢ .

تسليم ينال خان إلى جنكيزخان

لم يتوقف الخلاف بين خوارزم شاه وأمه تركان خاتون عند حد القضايا الداخلية في الدولة الخوارزمية ، إنما تعداها إلى القضايا الخارجية المصيرية بالنسبة للدولة ، والتي أدى الخلاف فيها إلى زوال الدولة الخوارزمية من خريطة المشرق الإسلامي نهائياً ، وقد تمثل ذلك الخلاف في قضية تسليم ينال خان إلى جنكيزخان .

فقد استخدم جنكيزخان العديد من الرجال كي يزودوه بالمعلومات المهمة التي يحتاجها لتخطيط حملاته وتنفيذها ، كما أنه زرع الجواسيس في قوافل التجار ، التي كانت لا تزال تسير على مسالك طريق الحرير القديمة ، ليأتوا له بالمعلومات [1] . ففي سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م جاء من جهة التتار تجار فأراد خال السلطان - متولي ما وراء النهر - أن يأخذ أموالهم ، وقبض عليهم وظنهم جواسيس للتتار [2] . فحين وصل التجار إلى مدينة [أترار] كان أميرها إنيال جق - ينال خان - أحد أقرباء أم السلطان تركان خاتون ، وكان من جماعة التجار تاجر هندي ، كان في الأيام الخالية على معرفة به ، فخاطبه على عادته السابقة المألوفة باسم إينال جوق ، معتمداً على مكانته من الخان ، من غير أن يتحاشاه ، فتغير خاطر إينال خان ، كما حدثته نفسه بالاستيلاء على أموال التجار ، لهذا فإنه أوقفهم جميعاً ، وأرسل رسولا إلى السلطان يخبره عن قدومهم،فأمر السلطان في الحال،ومن غير روية،بقتلهم جميعاً وبمصادرة ممتلكاتهم .[3]

هذا وبغض النظر عن الآمر بقتل التجار هل هو السلطان خوارزم شاه ، أم أن ينال خان فعل ذلك من تلقاء نفسه ، اختلفت المصادر التاريخية في درجة قرابة ينال خان من السلطان خوارزم شاه . فذكر الذهبي وابن العماد الحنبلي أنه خال السلطان [*] في حين ذكر النسوى أنه ابن خال السلطان خوارزم شاه [*] ، ويمكن أن نأخذ بقوله لقربه

---

[1] أيرين فرانك : طريق الحرير.ترجمة / أحمد محمود . ط - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ١٩٩٧م . ص٢٨٩

[2] الذهبي : سير أعلام النبلاء . جـ٢٢ ص٢٠٨ .

[3] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص٩٨ .

[*] انظر : سير أعلام النبلاء . جـ٢٢ ص٢٣٣ ، وشذرات الذهب في أخبار من ذهب - ط - دار الكتب العلمية - بيروت - لم تذكر سنة الطبع . جـ٣ ص٦١ .

[*] سيرة السلطان جلال الدين : ص٨٥ .

من أسرة خوارزم شاه ومعاصرته لها ، لكن مهما كانت درجة قرابته من السلطان فإنه كان بالتأكيد من أقرباء تركان خاتون أم السلطان ، وهذا ما أدى إلى وقوع الخلاف بين السلطان وأمه .

جاءت رسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه تقول : إن كان ما فعله خالك بأمره فسلمه إلينا ، وإن كان بأمرك فالغدر قبيح وستشاهد ما تعرفني به . [1] وقد ندم السلطان خوارزم شاه على قتل تجارهم [2] وأمسك عن تسيير ينال خان إليهم ، على رعب خامر قلبه ، وخوف سلبه لبه ، إذ كان لا يمكنه تسييره إليه وأكثر العساكر والأمراء من أقاربه ... والمتحكمين في دولته . [3]

إن ينال خان كان ابن خال السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، أي من عشيرة أمه ، كما كان معظم رجال الجيوش الخوارزمية من عشيرة أم السلطان ، لذلك كان نفوذها لا يقل عن نفوذ علاء الدين نفسه ، بفضل تعضيد هذه الجيوش لها ، أضف إلى ذلك أن كثيرين من رجال الدولة كانوا من أقربائها ، يتفانون في خدمتها ويأتمرون بأوامرها لذا لم يكن من السهل على علاء الدين خوارزم شاه أن يجيب جنكيزخان إلى طلبه فيسلم ينال خان إليه ، إذ أن ذلك سيؤدي بلاشك إلى ثورة عسكرية من جانب رجال الجيش ، فضلا عما سيؤدي إليه من اختلال في الدولة ، بعد أن ينفض رجال الجيش من حول خوارزم شاه وكيف يجرؤ خوارزم شاه على تنفيذ هذا الأمر وكبار رجال الدولة من أقرباء ينال خان ؟ [4] واعتقد أنه إذا لاطف جنكيزخان في الجواب لم يزده ذلك إلا طمعاً فيه ، فتماسك وتجلد ... وأمر بقتل أولئك الرسل فقتلوا . [5]

وقد جرت مذبحة أترار على المسلمين أكبر المصائب التي عرفوها في تاريخهم ... وحلت بالعالم الإسلامي تلك الكارثة الكبرى ، إذ حطم المغول حضارة المسلمين ، وأعملوا فيهم القتل والتعذيب والتشريد ، وأصبحت مدنهم أثراً بعد عين . [6]

---

[1] ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب . جـ٣ ص٦١ .
[2] الذهبي : سير أعلام النبلاء . جـ٢٢ ص٢٣٧ .
[3] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٨٧ .
[4] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٨٧ ـ ٨٨ .
[5] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٨٨ .
[6] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٨٨ .

محاولة جنكيزخان الوقيعة بين خوارزم شاه وتركان خاتون

كان إقليم خوارزم يمثل الجزء الرئيسي في هذه المملكة ، وكان خاضعاً لسيطرة تركان خاتون ، وسيطرة الأتراك من قبيلتها المسماة بالقنقلى ، وكان من الممكن جداً أن يدافع هؤلاء عن إقليمهم ضد العدو المغير ، وأن يثبتوا له [*] ، لولا أن الهرم كان قد استولى على تلك المرأة ، كما أن الضربة القاصمة التي أنزلها المغول بابنها كان لها أكبر الأثر في تسرب اليأس إلى نفسها ، أضف إلى ذلك ما ثار من نزاع بين أبناء السلطان محمد حول ولاية العرش ، كل ذلك سهل مهمة العدو في الاستيلاء أيضا على هذا الإقليم . [1]

كان اهتمام جنكيزخان ينصب على مطاردة السلطان محمد خوارزم شاه ، واستنصال شأفته ، إلا أن الاستيلاء على عاصمة الخوارزميين والنيل من تركان خاتون أم السلطان وسائر أمرائه كانت أموراً حتمية في نظر خان المغول [2] . فإذا كان جنكيزخان قد وضع نصب عينيه أن يتعقب خوارزم شاه للخلاص منه ، فإنه لم يغفل أيضا الاستيلاء على إقليم خوارزم خاصة عاصمته [الجرجانية] التي كانت في الوقت نفسه حاضرة الدولة الخوارزمية ، كذلك كان يحرص جنكيزخان على أسر تركان خاتون والدة السلطان ، وكان يعد ذلك أمراً حتميا للقضاء نهائياً على هذه الدولة . [3]

لما استولى جنكيزخان على أترار ، حضره بدر الدين العميد ، وكان ينوب بأترار عن الصفي الأقرع وزير السلطان ببلاد الترك ، وخلا به ، وكان يحقد على السلطان لقتله أباه القاضي العميد سعداً ، وعمه القاضي منصوراً ، وجماعة من بني عمه وأخوته عند استصفائه مملكة أترار ، وقال : ليعلم الخان أن السلطان أبغض خلق الله عندي لإفنائه خلقا من أهلي ، ولو قدرت على استيفاء ثأري منه ببذل روحي لفعلت . لكنني مخبرك بأنه سلطان عظيم صاحب قدرة ، ولا يغرك تفريقه العساكر بهذه الأطراف ، ولو أراد لحشر من بسيط ملكه وفسيح عرضته أضعاف ذلك . والرأي عندي أن تعمل

---

[*] ظلت مدينة الجرجانية الواقعة على نهر جيحون صامدة سبعة أشهر عصيبة كبدت خلالها المغول خسائر كبيرة ، إلا أن انتقام المغول كان شاملاً .أيريـن فرانك : طريق الحرير . ص٢٩٣ .

[1] د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص١٢٤ .

[2] عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٧٨ .

[3] د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص١٢٣ - ١٢٤ .

عليه حيلة يتوهم بها من أمراء عسكره ، وعرفه ما بينه وبين والدته من الوحشة والتنافر ، وتجاذبا في ذلك أطراف الكلام .[1] ومن الجائز أن يكون بدر الدين هذا وقومه كانوا ينتمون لحزب رجال الدين الذي كان مناوئاً للسلطان وأظهروا عدواتهم بصورة أكثر حدة مما فعل صدر بخارا ومشايخ سمرقند ، وقد حصل جنكيزخان من بدر الدين على معلومات مفصلة عن ظروف الأحوال السياسية بالبلاد وعن العداء الذي حملته تركان خاتون والحزب العسكري للسلطان ، فعمل جنكيزخان فيما بعد على استغلال ذلك لمصلحته .[2]

اتفق بدر الدين العميد مع جنكيزخان على أن زور كتباً على لسان الأمراء أقارب والدة السلطان إلى جنكيزخان . يبذلون له الدخول في طاعته ، ويقولون : " إنا تسحبنا من بلاد الترك بعشائرنا ومن يلوذ بنا إلى السلطان ، رغبة في خدمة والدته ، فلما نصرناه على كافة ملوك الأرض ، وذلت له الجبابرة وخضعت له الرقاب فها هو الآن تغيرت نيته في حق والدته ، عتوا منه وعقوقاً ، وهي تأمرنا بخذلانه ، فنحن على انتظار وصولك واتباع أمرك ... " وكان هذا تدبير نائب الوزارة المذكور . وسلم جنكيزخان الكتب إلى بعض خواصه ، وأمره أن يتوجه بها إلى السلطان ، ويظهر له أنه قد هرب من صاحبه إليه ، ففعل ذلك ، فلما وصل إلى السلطان ووقف على الكتب لم يشك في صحة ذلك . ونفر من هؤلاء الأمراء ، ونأى عنهم وبدد شملهم ، فلما فعل هذا بأقارب والدته تركان خاتون غضبت لذلك.[3] . وسير جنكيزخان دانشمند الحاجب[*] ، وهو من خواصه إلى تركان خاتون بخوارزم يقول : قد عرفت مقابلة ابنك حقوقك بالعقوق ، وهأنذا قد قصدته بمواطأة من أمرائه ، ولست بمتعرض إلى ما تحت يدك من البلاد ، فإن أردت ذلك بعثت إلى من يستوثق لك مني فتسلم لك خوارزم وخراسان وما تتاخمهما ما من قاطع جيحون [4] غير أن تركان خاتون لم تطمئن إلى هذا الوعد ، ولم

---

[1] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٢ .

[2] بارتولد : تركستان . ص٥٨٠ .

[3] النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ ص٢٤٤ .

[*] هناك ثلاثة من المسلمين كانوا من أشد الناس إخلاصاً للعاهل المغولي ، خصوصا في الأيام الحالكة التي صادفها في حياته المبكرة ، وهؤلاء هم جعفر خوجا ، وحسن ، ودانشمند الحاجب ، وقد أفاد جنكيز خان من حسن ودانشمند في حملته على مملكة خوارزم شاه ، بما قاما به من مفاوضات مع السكان الأصليين . د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص١٥٣ .

[4] النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٣ .

تستجب لهذه الدعوة ، بل غادرت إقليم خوارزم، [1] وكان سبب ذلك أن والدة خوارزم شاه لما سمعت بما جرى على ولدها خافت ، ففارقت خوارزم [2] . إذ حين عبر السلطان خوارزم شاه مياه نهر ترمذ هارباً أرسل إلى خوارزم رسولاً ، يطلب من والدته وحريمه أن يتجهن نحو مازندران ويتحصن في القلاع . وانطلقت الأم تبعاً لوصية ابنها ، وأخذت معها الأطفال ، وكانوا أحفادها ، وباقي الحريم ، بينما تركت الجيوش والأعيان في خوارزم [3] . فبرغم هذا الشقاق الذي قام بين علاء الدين خوارزم شاه وأمه ، فإنه لما رأى الخطر ماثلاً أمام عينيه ، أرسل إليها في خوارزم يطلب منها أن تتقهقر هي وحاشيتها إلى إقليم مازندران جنوبي بحر قزوين . [4]

---

[1] د / الصياد : المغول في التاريخ . ص١٢٤ .

[2] ابن الأثير : الكامل في التاريخ .جـ ١٢ ص١٢٤ .

[3] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص١٠٠ .

[4] د / حافظ حمدي . الدولة الخوارزمية والمغول . ص١٥٨ .

نهاية الملكة تركان خاتون

أخذت الملكة تركان خاتون بنصيحة ولدها السلطان خوارزم شاه في مغادرة خوارزم ، وقبل أن ترحل ارتكبت عملاً بربرياً فاحشاً ذلك أنها أمرت بقتل أولئك الأمراء الذين كان علاء الدين خوارزم شاه قد استولى على أملاكهم والذين كانوا في سجون خوارزم [1] . يقول النسوى عن ذلك : [2] " قدمت عند خروجها من نقيض البر ، ما أرخ الزمان بسوء الذكر وترك سبة مخلدة على وجه الدهر ، وهو أنها كانت تعتقد أن نار تلك الفتنة عن قريب تخمد . وأن العروة المنفصمة سوف تعقد ، فأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الأسارى ، وأبناء الملوك وذوى المراتب المنيفة ، زهاء اثنى عشر[*] نفساً محرمة مثل ابني السلطان طغرل السلجوقي ، وعماد الدين صاحب بلخ ، وابنه الملك بهرام شاه صاحب ترمذ ، وعلاء الدين صاحب باميان ، وجمال الدين عمر صاحب وخش ، وابني صاحب سقناق من بلاد الترك ، وبرهان الدين محمد صدر جهان ، وأخيه افتخار جهان وابنيه ملك الإسلام وعزيز الإسلام ، وغيرهم " .

وقد أمرت بقتل هؤلاء السادة حتى لا يفيدوا من الظروف العسيرة التي تمر بها الأسرة الحاكمة ، فإن الملكة كانت واثقة من أن هذه الظروف العسرة لم تكن بأكثر من سحابة صيف[3] . فقد أغرقت من كان محبوساً عندها ، عدا من لم يكونوا على عداء مع السلطنة ، واتجهت بعد ذلك نحو مازندران ومعها أولادها وخزائنها . [4] ولما أجلت تركان خاتون خوارزم ، ولم تترك بها من يقوم بضبط الأمور وسياسية الجمهور ، تولى أمرها (على كوه دروغان) وكان رجلا عياراً [*] مصارعاً ... ووقع الناس من سوء تدبيره وعدم خبرته بقوانين السياسة وقلة حظه من أدوات الرياسة في خباط واختلاط ،

---

[1] د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص١٦١ .

[2] سيرة السلطان جلال الدين : ص٩٤ .

[*] ذكر السبكي أنها أخرجت من الحبس عشرين سلطانا - وليس اثنى عشر - كانوا في سجن ولدها وقتلتهم . طبقات الشافعية الكبرى . جـ١ ص ٣٣٨ .

[3] بارتولد : تركستان . ص٦٠٨ .

[4] الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص١٠٠ .

[*] العيار : هو من يكون في دور الضرب ، والعيار كل ما تقدر به الأشياء من كيل ووزن وما اتخذ أساساً للمقارنة . البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص٢٥٣ .

وزالت هيبة الملك .[1]

خرجت عن خوارزم وصحبها من قدر على الخروج وتعذرت صحبتها على أكثر الناس ... واستصحبت عمرخان بن صاحب يازر ، وكان محبوساً بها لخبرته بهاتيك الطرق المفضية إلى بلاده ، وكان المذكور قد لقب بصبور خان ، وسبب تلقيبه بصبورخان أن أخاه هندوخان كان قد سمله حين استولى على الملك ، فرفق به المباشر للسمل مبقيا على بصره ، فتعامى المذكور إحدى عشرة سنة إلى أن توفى هندوخان وملكت تركان خاتون بلد بازر محتجة بأن هندوخان كان متزوجاً من قبيلتها بامرأة من قرايبها ، ففتح عمر خان عينيه ، وقصد باب السلطان يرجو تقرير الملك عليه ، فلم يحصل له ما كان يأمله غير تلقيبه بصبورخان ، وخرج المذكور في خدمها عن خوارزم وليس معها غيره من تعول عليه لكشف ملة أو إزالة بؤس ، أو دفاع خطب عبوس . وقد خدمتها تلك المدة أتم خدمة حتى إذا قاربت تخوم يازر . خافت أن يفارقها المذكور فأمرت بضرب عنقه ، فقتل صبرا وأهلك غدراً وسارت بما معها من الحرم والخزائن فصعدت قلعة إيلال ، وهي من أمهات قلاع مازندران ، فأقامت بها إلى أن فرغ التتار من إجلاء السلطان وإلجائه إلى الجزيرة التي مات فيها .[2]

عندما وصلت الملكة تركان خاتون إلى قلعة إيلال بمازندران ، أمرت بتحصين القلعة ، فحصنت [3] . وسار المغول إلى مدينة الري فترامى إلى مسامعهم أن السلطان يقيم في هذا الجزء الغربي من الدولة ، وفي الطريق عثروا صدفة على تركان خاتون والدة السلطان [4] . إذ استولى المغول بقيادة القائدين شبي Chepe وسوبوتاي Souboutai على هذه القلعة ، بينما كانا يطاردان السلطان علاء الدين خوارزم شاه [5] . حيث وصل سبتاي ، إلى مازندران في أعقاب السلطان فأمر بمحاصرة القلعة المذكورة ، فاضطرت قلعة إيلال إلى الماء ، لأن الناس لم يقدروا على خزن المياه متوقعين أمطار السحب ... لكن المطر عاندهم وتحت حصار المغول لهم ... وبعد عشرة أيام أو خمسة عشر لم يبق لديهم قطرة ماء واحدة [6] . فما كان

---

(١) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص١٢١ .

(٢) المصدر السابق : ص٩٥ .

(٣) النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ . ص٢٤٦ .

(٤) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص١٥٣ .

(٥) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٦ حاشية رقم (٢) .

(٦) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ . ص١٠٠ .

بالقلعة من ماء ، تم استهلاكه خلال فترة تتراوح بين عشرة أيام أو خمسة عشر يوماً ... وكما هو حال المغول حين يحاصرون قلاعاً تقع على مرتفع من الأرض ، فقد أقاموا حول القلعة سياجاً من الخشب وقطعوا عن الحامية كل اتصال بالخارج [١] . فحوصرت إيلال مدة أربعة أشهر ، وبني حولها سور ، وغلقت الأبواب على السور تغلق بالليل وتفتح بالنهار ، وهذه عادتهم في حصار القلاع المنيعة ، إلى أن ضويقت بالحصار . [٢]

اضطرت تركان خاتون ومن معها من النساء وناصر الدين الوزير [*] إلى النزول من القلعة.وفي اللحظة التي خرجوا فيها من القلعة أمطرت السماء .[٣]

فما أن نزلت من القلعة حتى فاضت الصهاريج في هذا اليوم حتى نزل السيل من باب القلعة [٤] . فظفروا بأم السلطان خوارزم شاه ، ومعها خزائنه فأسروها وذلك سنة ٦١٧هـ[٥] / ١٢٢٠م ، وكان معها من الأموال والجواهر والنفائس مالا يعد كثرة ، فاستولوا عليه . [٦] ومما أخذوا لابنها صندوقين ، كان هو يقول - أي خوارزم شاه - فيهما ما يساوي خراج الأرض [٧] ، فأخذوها وما معها قبل وصولهم إلى الري ، فكان فيه ما ملأ عيونهم وقلوبهم ، وما لم يشاهد الناس مثله من كل غريب من المتاع ، ونفيس من الجوهر ، وغير ذلك ، وسيروا الجميع إلى جنكيزخان بسمرقند . [٨]

بعد أن أسر المغول الملكة تركان خاتون أرسلوها ووزيرها نظام الملك وحريم خوارزم شاه وأبنائه الصغار إلى جنكيزخان الذي كان على مشارف الطالقان ، فأمر بقتل نظام الملك وأبناء خوارزم الصغار في سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م ، وأودع بنات خوارزم

---

(١) بارتولد : تركستان . ص٦٠٨ .

(٢) النسوي : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٥ - ٩٦ .

(*) في الوقت الذي كان أمراء جنكيزخان يحاصرون فيه قلعة إيلال ، كان محمد بن صالح موجوداً داخل هذه القلعة بصحبة والدة السلطان . د / حربي سليمان : المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير ص٣١١ .

(٣) الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ٢ ص١٠٠ .

(٤) النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ ص٢٤٦ .

(٥) الذهبي : سير أعلام النبلاء . جـ٢٢ ص٢١١ بتصرف بسيط .

(٦) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى . جـ١ ص٣٣٨ .

(٧) الذهبي : سير أعلام النبلاء . جـ٢٢ ص١٤٣ .

(٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ . جـ١٢ ص٣٧٣ .

شاه وحريمه وأخواته مع تركان خاتون في مكان واحد [1] ، واختلف المؤرخون في تحديد المكان الذي كان فيه جنكيزخان عندما وصلته تركان خاتون ، ذكر ابن الأثير - آنفاً - أنه كان في سمرقند ، في حين ذكر الجويني أنهم نقلوا تركان خاتون والنساء والأولاد وناصر الدين - الوزير - إلى طالقان(*) لمقابلة جنكيزخان ، ومثلوا بين يديه في شهور سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م . [2]

قتل جنكيزخان الوزير نظام الملك وأما صغار أولاد السلطان فقتلوا جميعاً حين نزلوا إلا أصغرهم سناً [جي شاد] ، وكانت تركان خاتون مستأنسة به تزجى به أيام البؤس والأسى ، وأوقات النكد والبلوى ، بينما هي كانت تسرح رأسه ذات يوم وهي تقول : لدي اليوم من ضيق الصدر ما لم أكن أجد قبل ، إذ أتاها بعض سرهنكية (**) جنكيزخان مستحضراً للصبي ، ففارقها وكان آخر عهدها به ، فلما أحضر بين يديه أمر بإعدامه . [3]

قضي جنكيزخان شتاء عام ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م في سمرقند وضواحيها . ولما حل الربيع بدأ في المسير ... وقبل أن يترك المغول حدود الدولة الخوارزمية (**) أمر جنكيزخان تركان خاتون أم السلطان علاء الدين خوارزم شاه كما أمر زوجاته أن يلقين آخر نظرة على أراضي وطنهن . [4] ولدى مغادرتهن أرض الوطن أذن للملكة ولبقية النساء بالتعبير عن حزنهن بالعويل والنواح [5] . لتنتحب على ملكها الضائع ، ولتكفر عن صلفها وقسوتها عندما وجدت الأمور تفلت من يدها ، فأمرت بقتل البقية الباقية من

---

(1) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٨٣ .

(*) الطالقان : بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو وبلخ . الحموى : معجم البلدان . جـ٤ ، ص٦ .

(2) تاريخ فاتح العالم : جـ٢ ص١٠١ .

(*)سرهنكية : سر بمعنى الرأس ، وهنك بمعنى الفارس أو البطل أو المبارز وربما تطلق على القائد . د / أحمد السعيد سليمان : تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل . ط - دار المعارف - مصر - لم تذكر سنة الطبع . ص٦٠ .

(3) النسوى : سيرة السلطان جلال الدين . ص٩٧ .

(**) كان سبب هذه العودة يرجع للثورة التي نشبت في الصين الشمالية والتبت ، وكان الأمر يستدعي حضور جنكيزخان . عباس إقبال : تاريخ المغول . ص١٠٠ .

(4) د / حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص١٩٣ .

(5) بارتولد : تركستان . ص٦٠٩ .

أمراء السلاجقة والغوريين ، وكانوا رهائن لديها لا يملكون من أنفسهم شيئاً .[1] قيل إنه انتهى حالها إلى أن كانت تحضر سماط [**] جنكيز خان وتحمل منه في كل وقت ما يقوتها مدة ، بعد أن حكمت في أكثر البلاد .[2] يقول النسوي عن وضعها هناك : [3] "آل أمرها في الأسر من العسر ، أنها كانت تحضر سماط جنكيز خان فتحمل منه ما يقوتها أياماً ، وكان حكمها قبل ذلك ينفذ في أكثر الأقاليم ، فسبحان مغير الحال بعد الحال " فقد أمضت هناك في قره قورم بضع سنوات في الآلام ، ثم ماتت في شهور سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م .[4]

---

[1] د / فؤاد الصياد : المغول في التاريخ . ص١٣٧ .

[***] السماط : معناه المائدة السلطانية ، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين . البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ص١٨٥ .

[2] النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ ص٢٤٦ .

[3] سيرة السلطان جلال الدين : ص٩٧ .

[4] الجويني : تاريخ فاتح العالم .جـ٢ ص١٠١ .

أثر تدخل الملكة تركان خاتون فى الشئون السياسية

تعددت الأسباب التى أدت إلى زوال الدولة الخوارزمية ما بين اضطراب الحالة الداخلية فى الدولة ، وضعف النظام الحربي الخوارزمي ، وقوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول [١] ، ففضلاً عن قوة النظم الاجتماعية والحربية عند المغول ، كان لتدخل الملكة تركان خاتون فى الشئون السياسية وفى أمور الحكم عامة ـ كما ذكراً آنفاً ـ السبب الأكبر فى اضطراب الحالة الداخلية فى البلاد ، لدخولها فى صراع سياسي مع صاحب السلطة العليا فى البلاد السلطان خوارزم شاه ، كما كان تشجيعها وحمايتها لبنى جنسها من أتراك الكانكالي الأثر الكبير أيضاً فى ضعف النظام الحربي فى الدولة الخوارزمية .

كان عدد جنود جيش خوارزم شاه أكبر من عدد جنود جنكيزخان بكثير ، لكن لم يكن الود متصلاً بينه وبين الأمراء الخوارزمشاهيين ، لذا فإنهم لم يفعلوا شيئاً إزاء تقدم المغول [٢] ، فقد كان فى عسكره جماعة نياتهم فاسدة وجماعة من الملوك وأبناء الملوك الذين أزال ملكهم ، فهم موغروا الصدور عليه [٣] ، وكانت تركان خاتون على رأس الحزب العسكري ، وكان سلوك أنصارها فى الولايات المفتوحة أحد الأسباب الرئيسية لانهيار مملكة خوارزم شاه. [٤]

على الرغم من أن جيوش خوارزم شاه تفوق فى العدد قوات جنكيزخان ، فإنه لم يفد من هذه الميزة ، لما كان بينه وبين قادته من علاقات عدائيه ، إذ بلغ عدد جيش خوارزم شاه نحو ٤٠٠ ألف مقاتل ـ كانت قوات جنكيزخان بين ١٥٠ ألف ، ٢٠٠ ألف رجل ـ غير أنه وزع هذه الجيوش فى الأماكن والمواضع الحصينة الواقعة بين نهر سيحون وداخل إقليم ما وراء النهر[٥] ، يقول النسوى عن ذلك [٦] : " ومن التدابير

---

(١) د/ حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٢٢٩ وما بعدها .

(٢) عباس إقبال : تاريخ المغول . ص٦٥ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق د/ حسين ربيع . ط ـ دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٢ . جـ٢ ص٤٢ .

(٤) بارتولد : تركستان . ص٦٠٥ .

(٥) د/ السيد العريني : المغول . ص١٢٣ .

(٦) سيرة السلطان جلال الدين .ص٩٠ ـ ٩١ .

الخطأ أنه لما سمع بقرب جنكيزخان فرق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك ، فترك ينال خان فى عشرين ألف فارس بأترار ... وبالجملة لم يترك بلداً من البلاد مما وراء النهر خالياً من عسكر مجر ، وقد أخطأ فى ذلك فلو التقى التتار بكتائبه قبل أن يفرقها لاختطفهم خطفة ونسفهم عن الأرض نسفاً " .

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تعليل السبب الذى دفع علاء الدين محمد خوارزم شاه إلى توزيع قواته على المدن الخوارزمية المختلفة ... فيرى فلاديمير تسوف vladimir Tsiv أحد المتخصصين فى تاريخ المغول - أن السلطان الخوارزمي كان لا يثق بقواده لذلك كان يخشى أن يجتمع عدد كبير من رجاله تحت قيادة رجل واحد ، فتنقلب عليه هذه الجيوش تحقيقاً لرغبة قائد ما قد تحدثه نفسه بعصيان السلطان [1] ، ولو أن الوفاق ساد بين قادة السلطان وتولى القيادة ، رجل كفء ، وثق فيه جميع القادة والجند لتحقق لهم رد المغول ، على أنه إذا تحقق لهم النصر ، فالراجح أنهم ينقلبون على السلطان وأسرته . [2]

وقد أكد هذا الأمر الجويني - على الرغم من ميله فى كتاباته إلى طرف المغول - يقول عن ذلك [3] : " كان الشيطان الوسواس قد استولى على ضمير والده السلطان محمد والخوف والهلع ثانيه ، فقد كان السلطان يبحث عن منفذ فى الأرض أو سبب إلى السماء لينجو من الجيش - المغولي - الذى لا يعد ولا يحصى ... أما أولاده فكان أكبرهم جلال الدين صاحب الشهامة والصرامة ... وكان ملازماً لوالده ، أما أبناؤه الآخرون فقد انغمسوا فى زينة الحياة الدنيا وهوسها ... وكان جلال الدين يقول لأبيه : إن توزيع الجيوش فى الأقطار ، والهرب من الخصم الذى لم تقابله يعد دليل الذليل ... وإن لم يقتحم السلطان ويصر على الفرار فليترك لى قيادة هذا الجيش الجرار ، وسيرى منى ما يدهشه ويرهب عدوه " . لكن نظراً لكراهية تركان خاتون وعشيرتها لجلال الدين منكبرتى ، ونظراً لطاعة السلطان خوارزم شاه لأمه ، فإن تركان خاتون وعشيرتها لم يمكنوا جلال الدين من القيادة الموحدة للجيوش الخوارزمية - كما لم تمكنه من قبل من ولاية العهد - فوقع الدمار فى نهاية الأمر على الجميع .

هذا ولم تتوقف تدخلات تركان خاتون فى شئون الجيش عند حد عدم الوفاق

---

(1) المصدر السابق : ص٩١ حاشية رقم (٥) .

(2) د/ السيد العريني : المغول . ص١٢٣ .

(3) تاريخ فاتح العالم : جـ٢ ص٣٥ بتصرف بسيط .

بين صفوفه ، بل تعداه إلى درجة انضمام قادته من بنى جنسها إلى صفوف المغول ، فمن ذلك أنه عندما حاصر التتار مدينة جرجانية عاصمة خوارزم ، أدخلت العمليات العسكرية المغولية الرعب فى قلب [خمار تكين] (*) ، فكف عن القتال ، وخرج من المدينة وأعلن استسلامه للتتار وكان لهذه الخيانة تأثير فتّ فى عضد أهالي جرجانية (١) ، وبعد أن فرغ جنكيزخان من تدمير بخارى ، اتجه صوب سمرقند سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م وبعد أن علم أهالي سمرقند بواقعة استشهاد محاربيهم ، وهنت قواهم ، وتوانى الجيش الخوارزمي بقيادة [طغاى خان]شقيق تركان خاتون عن القتال بدعوى أنهم ينتمون إلى جنس المغول نفسه وطلبوا الأمان من جنكيزخان ، ولم يواصل الدفاع سوى عدد قليل من الأهالي (٢) .

ولم تتوقف الخيانة عند القادة فقط ، بل امتدت إلى الجنود العاديين فمن ذلك أنه لما اتصل خبر استيلاء جنكيزخان على بخارى بالسلطان خوارزم شاه ، عبر نهر جيحون ، وأيس من بلاد ما وراء النهر ، وفارقه إلى التتار من الأتراك عشيرة أخواله زهاء سبعة آلاف (٣) .

لم يكن هؤلاء الأتراك مصدر قوة للدولة ، بل كانوا مصدر ضعفها ولما شعروا بضعف السلطان لم يحترموا قوته أو حكومته ، وأخذوا ينهبون البلاد ، وأسوأ من هذا نراهم يتركون صفوف الجيش الخوارزمي وينضمون تحت لواء جيش جنكيزخان المغولي . (٤) فكلما توغل الجيش المغولي غرباً ، كلما زاد عدد الأتراك الذين انضموا إليه طوعاً أو كرهاً ... فقد كان جنكيزخان يعمد دائماً إلى إغراء الأتراك الذين كانوا يخدمون فى جيوش الأعداء بأن يهجروا تلك الجيوش وينضموا إلى جيشه مذكراً إياهم بالحماقة التى يرتكبونها إذا استمروا بممارسة النزاع الأخوى - أى الجنس المشترك بينهما - . (٥)

(*) عندما رحلت تركان خاتون عن خوارزم كان من أعيان جيشها [خمارتكين] التركي وكان من أقرباء تركان خاتون ... وبحكم القرابة بين خمار والخاتون ، أجمع الأعيان على تنصيبه سلطاناً عليها ، واسموه الملك [نوروزى] . الجويني : تاريخ فاتح العالم . جـ١ ص١٣٢ .

(١) عباس إقبال : تاريخ المغول .ص٨١ .

(٢) المرجع السابق : ص٧١ .

(٣) النويري : نهاية الأرب . جـ٢٧ ص٢٤٨ .

(٤) د/ حافظ حمدي : الدولة الخوارزمية والمغول . ص٢٣٦ .

(٥) بارتولد شبولر : العالم الإسلامي فى العصر المغولي ، ترجمة / خالد عيسى . ط - دار حسان - دمشق - سوريا - الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢م . ص٣١ - ٣٢ .

إن الطبقة العسكرية التى كانت على رأسها والدة السلطان دخلت فى عداء سافر مع صاحب السلطة العليا فى البلاد ، أما طبقة رجال الدين فلم يكن بوسعها أن تغفر لخوارزم شاه إعدامه لمجد الدين وقسره إياها على إصدار فتوى ضد الخليفة ، وأما الأهالي الذين حررهم محمد خوارزم شاه من نير الكفار فقد هبوا فى وجه محرريهم وأخمدت حركاتهم فى بحار من الدماء ، لكن مع هذا فإن محمداً خوارزم شاه لم يكن بمقدوره الاعتماد حتى على عنصر واحد فى حكومته ، أو على طبقة ما من السكان ، وإزاء هذا يضحى مفهوماً نتيجة الصراع بين دولة كهذه وبين قوى الرعاة الفتية التى تم توحيدها فى تلك اللحظة التاريخية على يد واحد من أفذاذ المنظمين وأقدرهم على مدى العصور جنكيزخان .[1]

أما خلاصة القول فى تدخل تركان خاتون وعشيرتها فى الشئون السياسية فى الدولة الخوارزمية فيقول عنه الجويني[2] : " والحق إن ظلمهم وفتكهم - وكان هذا بتأييد من تركان خاتون كما ذكر آنفاً - من أهم أسباب زوال دولة السلطان :

قوم ترى الصلوات الخمس نافلة ∴ وتستحل دم الحجاج فى الحرم

---

(1) بارتولد : تركستان . ص٥٤٣ .

(2) تاريخ فاتح العالم : جـ٢ ص٩٩ .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

ابن الأثير : علي بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير .ت ٦٣٠هـ .

١ـ الكامل فى التاريخ . ط ـ دار صادر ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة السادسة ١٩٩٥م

ابن تغرى بردى : يوسف بن تغرى بردى الأتابكى . ت٨٧٤هـ

٢ـ النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ـ ط ـ وزارة الثقافة والإرشاد ـ مصر ـ لم تذكر سنة الطبع .

الجويني : عطاء ملك الجويني . ت ٦٨١هـ .

٣ـ تاريخ فاتح العالم . نقله عن الفارسية د/ محمد التونجي . ط ـ دار الملاح ـ سوريا ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٥م .

الحموى : ياقوت بن عبد الله الحموى . ت٦٢٦هـ .

٤ـ معجم البلدان . ط ـ دار الفكر ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع .

الذهبي : محمد بن أحمد الذهبي . ت٧٤٨هـ .

٥ـ سير أعلام النبلاء . تحقيق / شعيب الأرناؤوط ـ ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ لبنان ـ الطبعة لتاسعة سنة ١٩٩٣م .

٦ـ العبر فى خبر من غبر . تحقيق د/ صلاح الدين المنجد ـ ط ـ حكومة الكويت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

السبكي : عبد الله بن علي بن عبد الكافي السبكي . ت٧٧١هـ .

٧ـ طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق د/ عبد الفتاح محمد الحلو ـ ط ـ هجر للطباعة ـ الجيزة ـ مصر ـ الطبعة الثانية سنة ١٩٩٢م .

ابن العماد الحنبلي : عبد الحي بن أحمد الحنبلي . ت١٠٨٩هـ .

٨ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ط ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع .

القلقشندي : أحمد بن عبد الله القلقشندي . ت٨٢١هـ .

٩ـ مآثر الإنافة فى معالم الخلافة . تحقيق / عبد الستار أحمد فراج ـ ط ـ حكومة الكويت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٥م .

ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي . ت٧٧٤هـ .

١٠ـ البداية والنهاية . ط ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ لبنان ـ لم تذكر سنة الطبع .

النسوي : محمد بن أحمد النسوي .

١١ـ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى . تحقيق د/ حافظ أحمد حمدي ـ ط ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة سنة ١٩٥٣م .

النويري : أحمد بن عبد الوهاب النويري . ت٧٣٣هـ .

١٢ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب . تحقيق د/ سعيد عاشور ـ ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٥م .

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل . ت٦٩٧هـ .

١٣ـ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب . تحقيق د/ حسين ربيع ـ ط ـ دار الكتب المصرية سنة ١٩٧٢م .

ثانياً : المراجع العربية والمعربة

إقبال : عباس إقبال .

١ـ تاريخ المغول منذ حملة جنكيزخان حتى قيام الدولة التيمورية . ترجمة د/ عبد الوهاب علوب ـ ط ـ المجمع الثقافي ـ أبو ظبي ـ الإمارات سنة ٢٠٠٠م .

بارتولد : فاسيلى فلاديميروفتش بارتولد .

٢ـ تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي . نقلة عن الروسية / صلاح الدين عثمان هاشم ـ ط ـ المجلس الوطني للثقافة ـ الكويت ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨١م .

البقلي : محمد البقلي .

٣ـ التعريف بمصطلحات صبح الأعشى . ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .

حمدي : د/ حافظ أحمد حمدي .

٤ـ الدولة الخوارزمية والمغول.ط ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ لم تذكر سنة الطبع .

سليمان : د/ أحمد السعيد سليمان .

٥ـ تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتي من الدخيل . ط ـ دار المعارف ـ لم تذكر سنة الطبع .

سليمان : د/ حربي أمين سليمان .

٦ـ المؤرخ الإيراني الكبير غياث الدين خواندمير كما يبدو فى كتابه دستور الوزراء . ط ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٠م .

شبولر : بارتولد شبولر .

٧ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي . ترجمة / خالد أسعد عيسى ـ ط ـ دار حسان ـ سوريا ـ الطبعة الأولى ١٩٨٢م .

الصياد : د/ فؤاد عبد المعطي الصياد .

٨ ـ المغول في التاريخ . ط ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ سنة ١٩٧٠م .
العريني : د/ السيد الباز العريني .
٩ـ المغول . ط ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ لبنان ـ سنة ١٩٨١م .
عكاشة : د/ ثروت عكاشة .
١٠ـ إعصار من الشرق [جنكيزخان] . ط ـ دار الشروق ـ القاهرة ـ الطبعة الخامسة ١٩٩٢م .
فرانك : أيرين فرانك وآخر .
١١ـ طريق الحرير .ترجمة / أحمد محمود ـ ط ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة سنة ١٩٩٧م.